التوقيعات الأندلسية
في عصر الخلافة (٣١٦هـ : ٤٢٢هـ)
(دراسة موضوعية فنية)

د. أحمد عطية

كبير الباحثين بمركز المخطوطات- مكتبة الإسكندرية

(العدد الخامس والثلاثون)

(الإصدار الأول)

(١٤٤٣هـ - ٢٠٢٢م)

التوقيعات الأندلسية في عصر الخلافة (٣١٦هـ : ٤٢٢هـ)
(دراسة موضوعية فنية)

أحمد محمد عطية عبد الهادي
مركز المخطوطات، مكتبة الإسكندرية، الإسكندرية، جمهورية مصر العربية.
البريد الالكتروني: ahmedateyya1979@gmail.com

ملخص البحث: يعالج هذا البحث فن التوقيعات الأندلسية في عصر الخلافة في الأندلس (٣١٦هـ: ٤٢٢هـ) من عدة زوايا مهمة، الزاوية الأولى: زاوية المفهوم، أو محاولة بيان المقصود من هذا المصطلح (مصطلح التوقيع) وكيف عالجته كتب اللغة وبينت المراد منه، ثم بيان مدى تأثر المعنى الاصطلاحي لهذا المصطلح ببعض ظلال المعنى اللغوي، وكيف أنَّ بعض المصادر في تراثنا العربي ربطته بحالة استقرار الدولة سياسًا، وهي إشارة مهمة يمكن أن يساهم بها هذا الفن –فن التوقيع– في محاولة فهم واقع الحياة في فترة من الفترات التي ربما أهملها التاريخ السياسي.

الزاوية الثانية التي تناولت من خلالها هذه الدراسة فن التوقيعات دراسة تاريخ النشأة والتطور لهذا الفن وبيان البدايات الأولى لظهوره في الحياة الأندلسية، وقد خلصت هذه الدراسة إلى نتيجة مهمة تتمثل في أنَّ فن التوقيعات ظلَّ مرافقًا لكل عصور الدولة الإسلامية في الأندلس، وقد دخلته في بعض الأحيان بعضًا من ملامح التطور، حيث طالت مساحته في بعض الأحيان مما يؤهله أن يكون موطنًا لدراسات لغوية وبلاغية عدة.

ثم الزاوية الثالثة التي تناولت خلالها هذه الدراسة فن التوقيعات الأندلسية هي زاوية الدراسة الفنية، وقد شملت الدراسة الموضوعية ودراسة عنصري اللغة والتصوير، ثم دراسة عناصر الصياغة والتجويد.

وقد خلصت هذه الدراسة إلى عدد من النتائج بينتها في نهايتها، ثم أوردت قائمة بالمصادر والمراجع التي مثلت أحد الأسس المهمة في بناء هذه الدراسة.

الكلمات المفتاحية: التوقيعات – النشأة والتطور– الدراسة الموضوعية– اللغة–الصورة.

Andalusian signatures in the era of the caliphate (316 AH: 422 AH) (technical objective study)

Ahmed Mohamed Attia Abdel Hadi
Manuscript Center, Bibliotheca Alexandrina, Alexandria, Arab Republic of Egypt.
Email: ahmedateyya1979@gmail.com

Abstract: This research deals with the art of Andalusian signatures from several important angles، the first angle: the angle of the concept، or an attempt to clarify the meaning of this term (signature term) and how the language books dealt with it and indicated what is meant by it. That some sources in our Arab heritage linked it to the state of political stability of the state، which is an important indication that this art - the art of signature - can contribute to an attempt to understand the reality of life in a period that may have been neglected by political history. The second angle through which this study deals with the art of signatures Studying the history of the origin and development of this art and showing the first beginnings of its appearance in Andalusian life. Sometimes، which qualifies it to be the home of several linguistic and rhetorical studies، then the third corner from which this study dealt with the art of Andalusian signatures is the corner of the source study، where I tried to translate the sources in which these texts were received e signatures، and this is an important step in rooting this art and clarifying ways to verify the authenticity of its texts that have reached us.

Keywords: Signatures, Origin, Evolution, Princes of Andalusia, Sources of signatures

تقديم:

إنَّ فن التوقيعات هو أحد فنون الأدب العربي التي تدخل تحت دائرة النثر في مقابل الشعر الذي يعدُّ فنَّ العربية الأكبر. والدائرة النثرية على اتساعها شملت فنونًا عدة تنسجم داخلها في تمييز بين فن وآخر، فنجد داخلها فن الخطابة، وفن الرسائل، وفن الأمثال الأدبية...إلى غير ذلك من تلك الفنون المختلفة التي تجمعها دائرة النثر.

ومن بين هذه الفنون التي تدخل تحت هذه الدائرة فن التوقيعات، وهو أحد الفنون المهمة التي ترتبط دراستها أول ما ترتبط بالحياة السياسية في الفترة الزمنية موطن دراستها، وخاصة بالساسة ورجال الدولة الذين لهم الأمر والنهي.

والسبب في عدم اشتهار فن التوقيعات كغيره من فنون الأدب العربي التي تدخل تحت دائرة النثر الفني أنَّ مصنِّفي الأدب لم يعتبروه جنسًا أدبيًا قائمًا بذاته، وبالتالي لم يؤرخوا له مثلما أرخوا لفنون الأدب الأخرى مما أثَّر على مكانته وسط هذه الفنون.

ولقد انتشر هذا الفن في ربوع الحياة الأدبية في المشرق الإسلامي انتشارًا قويًا، يعكس مكانة هذا الانتشار تلك المصادر التي جمعت شتات الكثير منه، ويكفي القارئ أو المتتبع لفن التوقيعات أنَّ يقف على ما أورده ابن عبدربه (المتوفي ٣٢٧ هجرية) في كتابه "العقد الفريد"، أو ما أورده الجهشياري (المتوفى ٣٣١) في كتابه "الوزراء والكتاب"، أو ما أورده الآبي (المتوفى ٤٢١هجرية) في كتابه "نثر الدر"، أو ما أورده الثعالبي (المتوفى ٤٢٩ هجرية) في كتابه "خاصة الخاصة" ...إلى غير ذلك من تلك المصادر التي ضمَّت بين دفتيها الكثير من هذه التوقيعات التي تمثل في مجملها فنًا أدبيًا قائمًا بذاته يمكن أن يكون موطن دراسات عدة لعل أهمها ما يعكس ثقافة الخلفاء والأمراء ورجال الدولة في فترة من الفترات.

ثم انتقل فن التوقيعات إلى الأندلس مع فتح المسلمين لها وتكوين دولة إسلامية كبرى امتدت قرابة ثمانية قرون ازدهر خلالها هذا الفن، وأصبحت له مكانة كبرى في الحياة الأدبية الأندلسية، ولعل الوقوف على المصادر المختلفة التي ضمَّت بين دفتيها الكثير من هذا الفن–والتي سنبينها فيما بعد إن شاء الله تعالى– ما يعكس ذلك.

لقد مثَّل فن التوقيعات حلقة مهمة من حلقات دائرة النثر الأدبي في الأندلس، وارتبط ارتباطًا قويًا بقضايا بلاغية مهمة جدًا يأتي على رأسها الإيجاز اللفظي والاستعارة واستخدام تقنيات التعبير من خلال المحسنات البديعية المختلفة إلى غير ذلك من تلك القضايا التي وجدت لها أرضًا خصبة في هذا الفن، ففي أحيان كثيرة كان لا يتجاوز التوقيع سطرًا واحدًا، ولكنه يحمل مضامين لغوية وبلاغية كثيرة تحتاج وقفة لفهمه ومعرفة الغرض منه.

ثم هي تعكسُ بعد ذلك بعضًا من ملامح الحياة السياسية في تلك البلاد التي حطَّ فيها الإسلام رحاله طيلة ثمانية قرون، ويأتي على رأس هذه الملامح تلك الثقافة الأدبية الواسعة التي يتمتع بها الخلفاء والولاة وغيرهما من الساسة والأمراء.

ثم إنَّ هناك قضيةً أدبيةً أخرى تبيِّن قيمة فن التوقيعات باعتباره جنسًا أدبيًا قائمًا بذاته، وهي تتمثل في أنَّ قِصر عبارات هذا الفن، أي قصر العبارات التي عبَّر بها أصحاب التوقيعات المختلفة، والتي لا تتجاوز في الغالب سطرًا واحدًا أو سطران، يجعلُ التوقيع أقل ما يكون عرضة للتحريف والتبديل، وذلك بسبب سهوله حفظه في الذاكرة التي اعتمد عليها العرب في نقل معارفهم أكثر من اعتمادهم على الكتابة أو النص المكتوب، وبالتالي فإنَّ سهولة الحفظ تجعلهم يؤدون النص كما هو دون تحريف أو تبديل، فكلما طال النصُّ كان أكثر عرضة لهذا التحريف والتغيير.

إننا أمام فنٍ من فنون الأدب العربي مهم للغاية، يكاد يكون من أصدق الفنون الأدبية تعبيرًا عن حياة العصر الذي نشأ فيه، ثم هو يرتبط بعد ذلك بتشابكات

عديدة مع فنون أخرى تحاول شرح مضمونه وبيان المقصود منه. ومن هنا جاءت قيمة هذه الدراسة التي تدور حول توقيعات عصر الخلافة في الأندلس (دراسة موضوعية فنية) وسبب اختيار عصر الخلافة بالذات للدراسة يرجع إلى عدة أسباب من أهمها ما يلي:

أولًا: كثرة الأحداث السياسية في هذا العصر، فقد امتد هذا العصر من سنة ٣١٦ هجرية حتى سنة ٤٢٢ هجرية، وهي فترة تخللها كثير من الأحداث لدرجة أنَّ المؤرخين قسموا هذه الفترة إلى تقسيمات داخلية تبعًا لتطور الأحداث فيها وازدحامها، فقسموها إلى عصر الخلافة (٣١٦: ٣٦٦هـ) وعصر الحجابة (٣٦٦ هـ : ٣٧٩ هـ) وعصر الفتنة (٣٧٩ هـ: ٣٩٩ هـ) ثم صارت الأندلس طوائف وإمارات تمهيدًا لنشأة عصر ملوك الطوائف والذي بدأ رسميًا عام ٤٢٢هـ.

وهذه الأحداث السياسية ارتبط بها عدد من التوقيعات الأدبية مثَّلت رصيدًا لهذا الفن، ما يؤهلها أن تكون محلًا لدراسة موضوعية فنية.

ثانيًا: إنَّ توقيعات عصر الخلافة في الأندلس تثير قضية مهمة مرتبطة بالدراسة اللغوية تتمثل في الإجابة على هذا السؤال المهم: هل ظلَّت لغة التوقيعات في الأندلس تتميز بالرصانة والفصاحة والمحافظة على بلاغتها كما كانت في البداية عند دخول المسلمين الأندلس، أم أنَّ لغة التوقيعات قد تأثرت بمرور الزمن فمالت نحو الركاكة وعدم البلاغة؟

ثالثًا: إنَّ دراسة فن التوقيعات في عصر الخلافة يُلقي الضوء على مسألة التطور في مسيرة فن التوقيعات الأندلسية، ذلك الذي ارتبطت نشأته في بلاد الأندلس ببداية استقرار الحياة السياسية في الأندلس مع عصر الإمارة، والذي بدأ سنة ١٣٨ هجرية، وهي فترة كافية تمكننا من إدراك بعضًا من ملامح هذا التطور.

وانطلاقًا من هذه الأهمية يمكن تقسيم هذه الدراسة إلى المحاور التالية:

المحور الأول: مفهوم فن التوقيعات الأندلسية.

المحـور الثـاني: الدراسـات السـابقة التـي تناولـت فـن التوقيعـات فـي الحيـاة الأندلسية.

المحور الثالث: نشأة فن التوقيعات الأندلسية (نبذة مختصرة)

المحور الرابع: توقيعات عصر الخلافة في الأندلس (دراسة موضوعية فنية)

المحور الأول

مفهوم فن التوقيعات في الأدب العربي. (حدود المصطلح)

إنَّ الوجهة الأولى للتعريف بهذا الفن هو بيان ما ذكره اللغويون في معاجمهم من تعريف لمصطلح "توقيع"، وذلك لأنَّ المعنى اللغوي –في أحيان كيرة– يحمل ظلالًا مهمة ربما يُشتق منها المعنى الاصطلاحي.

قال الخليل بن أحمد في "معجم العين": "والتَّوقيعُ في الكتاب: إلحاقُ شيءٍ فيه"(١). وَقَالَ ابْن الْأَنْبَارِي: توقيع الْكَاتِب فِي الْكتاب الْمَكْتُوب: أَن يجمل بَين تضاعيف سطوره مقاصِد الْحَاجة ويحذف الفُضُول. وَهُوَ مَأْخُوذ من توقيع الدَّبَر ظهر الْبَعِير، فَكَأَن الْموقع فِي الْكتاب يُؤَثِّر فِي الْأَمر الَّذِي كتب الْكتاب فِيهِ مَا يؤكّده ويوجبه(٢).

وقال ابن فارس في "مقاييس اللغة": "وَوَقَعَ الْغَيْثُ: سَقَطَ مُتَفَرِّقًا. وَمِنْهُ التَّوْقِيعُ، وَهُوَ أَثَرُ الدَّبَرِ بِظَهْرِ الْبَعِيرِ. وَمِنْهُ التَّوْقِيعُ: مَا يُلْحَقُ بِالْكِتَابِ بَعْدَ الْفَرَاغِ مِنْهُ"(٣).

وقريب من هذا التناول ما أورده ابن سِيدة في "المحكم" حيث قال في تعريفه للتوقيع: "والتوقيعُ فِي الْكتاب: إِلْحَاق شَيْء فِيهِ بعد الْفَرَاغ مِنْهُ. وَقيل: هُوَ مُشْتَقّ من التوقيعِ الَّذِي هُوَ مُخَالفَة للْأولِ. ووَقَعَ المُدية وَالسيف والنصل يَقَعُها وَقْعا: أحدَّها وضربها"(٤).

---

(١) كتاب العين، للخليل بن أحمد، تحقيق مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، باب العين والقاف: ١٧٧/٢.

(٢) تهذيب اللغة، لأبي منصور الأزهري، تحقيق محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠٠١م، باب العين والقاف: ٢٢/٣.

(٣) مقاييس اللغة، لابن فارس، تحقيق عبد السلام هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هجرية، ١٣٤/٦.

(٤) المحكم والمحيط الأعظم، لابن سيده، تحقيق عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان: ٢٧٦/٢.

وفي "المنتخب من غريب كلام العرب": "والوَقْعُ أصله الأثَرُ؛ يقال وقعت الحديدة وَقْعًا: إذا ضَرَبْتَهَا بالمِيقَعَةِ وهي المِطْرَقَةُ، ومنه قيل طَرِيقٌ مُوَقَّعٌ: مُذَلَّلٌ مَوْطُؤٌ، ومنه وَقْعَةُ القتالِ لآثار الناس بها وآثار الدَّمِ، والوِقَاعُ: القِتَالُ... ومنه التَّوْقِيعُ في الكتاب تَفْعِيلٌ منه؛ لأنه يخالف الكلام الأول"(١).

وقال الزمخشري في أساس البلاغة: "وقع الشيء على الأرض وقوعًا. وأوقعته إيقاعًا. ووقع الطائر على الشجرة... ووقع الربيع في الأرض. وانتجعوا مواقع الغيث ومساقطه. وأصفى من ماء الوقيعة والوقائع وهي المناقع... ومن المجاز... ووقّع في كتابه توقيعاً"(٢). وفي القاموس المحيط: "والتَّوْقيعُ: ما يُوَقَّعُ في الكِتابِ"(٣)...إلى غير ذلك من المعاني اللغوية التي تدور حول الأثر الذي يقع على الشيء ويلحق به.

أمَّا المعنى الاصطلاحي لمصطلح "التوقيع" فإنه اشتق من المعنى اللغوي ودار حول ظلاله المختلفة، إضافة إلى أنَّ المصطلح هنا (فن التوقيعات) شكَّل حدودًا لما نسميه بأبعاد هذا الفن، وهو المجال الذي يتحرك فيه.

يقول ابن السيد البطليوسي (ت ٥٢١هـ) في "شرح أدب الكاتب": "وأما التوقيع، فإنَّ العادة جرت أن يستعمل في كل كتاب يكتبه الملك، أو من له أمر ونهي، في أسفل الكتاب المرفوع إليه، أو على ظهره، أو في عرضه، بإيجاب ما يسأل أو منعه، كقول الملك: ينفذ هذا إن شاء الله، أو هذا صحيح.

---

(١) المنتخب من غريب كلام العرب، لأبي الحسن الهُنائي (الملقب بكراع النمل)، تحقيق د. محمد أحمد العمري، جامعة أم القرى، معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ: ٦٦٣/١-٦٦٤.

(٢) أساس البلاغة، للزمخشري، تحقيق محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ: ٣٤٩/٢.

(٣) القاموس المحيط، للفيروزآبادي، تحقيق مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط٨: ص ٧٧٣.

وكما يكتب الملك على ظهر الكتاب: لترد على هذا ظلامته. أو لينظر في خبر هذا، أو نحو ذلك"[١].

وقد فسَّر البطليوسي سبب تسميته بالتوقيع معتمدًا على ما أورده الخليل في "معجم العين" حيث يقول: "وقال الخليل: التوقيع في الكتاب إلحاق فيه بعد الفراغ منه. واشتقاقه من قولهم: وقعت الحديدة بالويقعة وهي المطرقة: إذا ضربتها وحمار موقع الظهر: إذا أصابته في ظهره دبرة... والوقيعة: نقرة في صخرة، يجتمع فيها الماء، وجمعها: وقائع، قال ذو الرُّمة:

ولنَا سَقاطًا من حديثٍ كأنَّه جَنَى النَّخل ممزوجاً بماءِ الوقائعِ

فكأنه سمى توقيعاً، لأنه تأثير في الكتاب، أو لأنه سبب وقوع الأمر وإنفاذه من قولهم: أوقعتُ الأمرَ فوقع." [٢]

ويقول ابن خلدون (ت٨٠٨هـ) في تاريخه: "ومن خطط الكتابة التَّوقيع، وهو أن يجلس الكاتب بين يدي السّلطان في مجالس حُكمه وفصلهِ ويوقّع على القصص المرفوعة إليه أحكامها والفصل فيها مُتلقَّاة من السّلطان بأوجز لفظ وأبلغه، فإمَّا أن تصدر كذلك وإمَّا أن يحذو الكاتب على مثالها في سجلٍّ يكون بيد صاحب القصّة ويحتاج الموقِّع إلى عارضة من البلاغة يستقيم بها توقيعه"[٣].

ويضرب ابن خلدون مثلًا لما كان يقوم به جعفر بن يحيى بين يدي الرشيد من توقيع الكتب الواردة إليه حيث يقول: "وقد كان جعفر بن يحيى يوقّع في القصص بين يدي الرّشيد ويرمي بالقصّة إلى صاحبها، فكانت توقيعاته

---

(١) الاقتضاب في شرح أدب الكاتب، لابن السيد البطليوسي (ت ٥٢١هـ)، تحقيق مصطفى السقا وحامد عبد المجيد، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٩٦م: ١٩٥/١.

(٢) السابق: ١٩٦/١.

(٣) ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، لابن خلدون، تحقيق خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٨هـ: ص ٣٠٦.

يتنافس البلغاء في تحصيلها للوقوف فيها على أساليب البلاغة وفنونها حتَّى قيل إنّها كانت تباع كلُّ قصِّة منها بدينار وهكذا كان شأن الدّول"[١].

ويقول القلقشندي (ت ٨٢١هـ) في صبح الأعشى: "أما التوقيع فهو الكتابة على الرّقاع والقصص بما يعتمده الكاتب من أمر الولايات والمكاتبات في الأمور المتعلقة بالمملكة، والتحدّث في المظالم، وهو أمر جليل، ومنصب حفيل، إذ هو سبيل الإطلاق والمنع، والوصل والقطع، والولاية والعزل إلى غير ذلك من الأمور المهمات والمتعلقات السّنيّة. واعلم أن التوقيع كان يتولاه في ابتداء الأمر الخلفاء، فكان الخليفة هو الذي يوقّع في الأمور السلطانية، وفصل المظالم، وغيرهما. [٢]"

أمَّا نور الدين اليوسي (ت ١١٠٢هـ) في "زهر الأكم" فيقول: "وأما التوقيع فهو ما يلحق بالكتاب بعد الفراغ منه ممن رفع إليه كالسلطان ونحوه من ولاة الأمر، كما إذا رفعت إلى السلطان أو إلى الوالي شكاة فكتب تحت الكتاب أو على ظهره: ينظر في أمر هذا أو: يستوفى لهذا حقه أو نحو ذلك. فهذا توقيع"[٣].

ويضرب اليوسي بعض الأمثلة على هذه التوقيعات فيقول: "ورفع إلى جعفر بن يحيى كتاب يشتكى فيه بعامل فكتب على ظهره: يا هذا قد قل شاكروك وكثر شاكوك فإما اعتدلت وإما اعتزلت!.

ورفع إلى الصاحب بن عباد كتاب فيه: إنَّ إنسانا هلك وترك يتيما وأموالا جليلة لا تصلح لليتيم وقصد الكاتب إغراء الصاحب. فأخذها فوقع الصاحب

---

(١) السابق: ص ٣٠٧.

(٢) صبح الأعشى، للقلقشندي، دار الكتب العلمية، بيروت: ١٤٥/١.

(٣) زهر الأكم في الأمثال والحكم، نور الدين اليوسي، تحقيق د. محمد حجي– د. محمد الأخضر، الشركة الجديدة – دار الثقافة، الدار البيضاء – المغرب– الطبعة: الأولى، ١٤٠١ هـ – ١٩٨١ م: ٢٢٠/٢.

فيها: الهالك رحمه الله، واليتيم أصلحه الله، والمال ثمرة الله والساعي لعنه الله! ونحو هذا من التوقيعات"[١].

إذن نخلص من كل ما تقدَّم في هذا المدخل التعريفي لمصطلح "توقيع" أنَّ مجاله اللغوي تم اشتقاقه من عدة استخدامات استخدمها العرب، فهو مأخوذٌ من وقع الميْقَعَةِ (المطرقة) على الحديدة وقعًا إذا ضربتَها بها وأحدثت بها أثرًا، أو من الأثرِ الذي يتركه الدَّبر في ظهر البعير، أي من توقيع الدَّبر، أو من وَقْعِ الماء على الصخر فيحدث به نُقرًا يجتمع فيها الماء؛ هذه النُّقرُ تسمى مواقع الغيث، أو من أثار الدماء على الأرض من جرَّاء القتال في الحروب، لذلك سُميت بوقعة القتال، والحروب هي الوقائع.

أو سُمي التوقيع بذلك لأنه سبب توقيع الأمر؛ أي سبب تنفيذه. أو لأنَّ له تأثير في الكتاب الذي يحمله، فبدونه يفقد الكتاب أهميته.

وواضح من المعاني اللغوية التي اشتق منها هذا المصطلح تعريفه الاصطلاحي أنَّ بها ثراءً لغويًا، وهذا ليس بمستغرب على العربية التي تحمل معانٍ عدة لنفس اللفظة، ولكن الأمر الجدير بالإشارة إليه أنَّ هذه المعاني اللغوية للفظة "توقيع" ما زالت مستخدمة حتى يومنا هذا، فما زلنا نستخدم لفظة الوقائع في التعبير عن الحروب، ونعبر عن مساقط الغيث بقولنا "مواقع الغيث"...إلى غير ذلك من تلك الاستخدامات التي تعكس حياة اللغة العربية، فألفاظها التي تم توليدها أو نشأتها لتعبر عن أشياء في ذهن العربي الأول ما زالت مستخدمة حتى يومنا هذا، والسبب في ذلك يرجع –حقيقة– إلى القرآن الكريم، فنقرأ فيه قول الله تعالى "فلا أُقِسمُ بمَواقِعِ النُّجومِ". وهذه مسألة من المسائل المهمة التي ينبغي التَّعرض لها عن الحديث عن المعاني اللغوية التي اشتقت منها الألفاظ أو المصطلحات، إذ لابد أن نشير إلى استخدامات اللفظة

(١) السابق نفسه.

في الماضي وتطوراتها اللغوية لبيان مدى ثراء لغة القراء الكريم، وبيان ما قدمه القرآن للغة في الوقت نفسه.

أمَّا المعنى الاصطلاحي فإنه دار في مجمله حول إلحاق شيء بالكتاب بعد الفراغ منه، وغالبًا ما يتم هذا الإلحاق من صاحب الأمر أو النهي في كل كتاب مرفوع إليه.

وعادة ما يحتاج الموقِّع على الكتاب إلى شيء من البلاغة في صياغة توقيعه كما أشار إلى ذلك ابن خلدون، ومن هذا الموطن تتجلى قيمة دراسة التوقيعات باعتبارها أحد الفنون الأدبية، ومن ذلك توقيعات جعفر بن يحيى على ما كان يُرفع للرشيد من كُتب وقصص، حيث كانت توقيعاته غاية في البلاغة لدرجة أنَّ التوقيع منها كان يُباع بدينار كما يقول ابن خلدون.

ولعظِمَ ما يترتب على التوقيعات كان يتولاها الخلفاء بأنفسهم، أو أحد الكتاب تحت أعينهم، فالتوقيع سبيل الإطلاق والمنع، والوصل والقطع، والولاية والعزل إلى غير ذلك من الأمور المهمات والمتعلقات السّنيّة كما يقول القلقشندي.

المحور الثاني

الدراسات السابقة التي تناولت فن التوقيعات في الحياة الأندلسية.

لم أقف –من بين ما وقفت عليه من دراسات تناولت فن التوقيعات الأندلسية– على دراسة تختص بدراسة فن التوقيعات في فترة زمنية معينة من فترات الحياة السياسية في الأندلس، وإنما انحصرت الدراسات بين دراسات عامة تناولت التوقيعات الأندلسية في عمومها عبر كل العصور السياسية، أو اختصاص نوع منها بالدراسة كالتوقيعات الشعرية على سبيل المثال، أو قيام بعضها على مجرد الجمع والحصر لتلك التوقيعات على أهمية هذا المبحث، أو محاولة تطبيق مسألة من مسائل الدرس الفني على هذه التوقيعات.

غاية الأمر إنَّ الغرض من عرض الدراسات السابقة التي تناولت فن التوقيعات في الحياة الأندلسية يتمثل في أمرين مهمين:

الأمر الأول: بيان مكانة هذا الفن في الدرس الأدبي الحديث، وذلك يتضح بمقدار معالجته من قِبل هذه الدراسات.

الأمر الثاني: بيان الوجهة التي سلكتها هذه الدراسات التي تناولت فن التوقيع، فبعضها سلك مسلكًا إحصائيًا يقوم على فكرة الجمع من المصادر فقط، وهذا مسلك مهم في الحقيقة، خاصة ونحن أمام فنٍ توزعت بنيته المعرفية وسط مصادر مختلفة.

وسنعرض فيما يلي –إن شاء الله تعالى– بعضًا من هذه الدراسات التي قامت حول فن التوقيعات:

–التوقيعات الشعرية في الأندلس بين الأسس الموضوعية وقواعد الفن. لمحمود صبحي سيد أحمد شاهين[1].

(١) انظر: التوقيعات الشعرية في الأندلس بين الأسس الموضوعية وقواعد الفن، د. محمود صبحي سيد أحمد شاهين، حولية كلية اللغة العربية بنين بجرجا، جامعة الأزهر، العدد الرابع والعشرون، الجزء الثاني عشر، ١٤٤٢هـ، من ص ١١٥٣٧: ١١٥٩٨.

لقد اقتصرت هذه الدراسة على التوقيعات الشعرية فقط في الحياة الأندلسية، أي ما صدر من توقيعات على هيئة أبيات شعرية فقط، وبُنيت على تمهيد وفصلين، وقد تضمَّن التمهيد الدراسات السابقة على موضوع هذه الدراسة، وتعريف فن التوقيع من حيث اللغة والاصطلاح. أمَّا الفصل الأول فقد دار حول الدراسة الموضوعية، أي دراسة الموضوعات التي دارت حولها التوقيعات الشعرية في الأدب الأندلسي، فقد دار بعضها حول الإخوانيات، وبعضها حول الرد على طالبي العطايا والصلات، والبعض الثالث دار حول محور الرد على السعاة والوشاة...إلى غير ذلك من تلك الموضوعات التي دار حولها فن التوقيعات الشعرية في الأندلس.

أمَّا الفصل الثاني من هذه الدراسة فقد دار حول الدراسة الفنية للتوقيعات الشعرية في الأندلس، أي دراسة هذه التوقيعات من حيث اللغة والأسلوب والصورة الفنية...إلى غير ذلك من مفردات الدرس الفني.

والملاحظ على هذه الدراسة أنها اختصت فقط بالتوقيعات الشعرية دون النثرية، كما أنها امتدت عبر كل العصور السياسية في الأندلس، أمَّا دراستي فقد دارت حول توقيعات عصر الخلافة فقط من حيث الدراسة الموضوعية والفنية.

-التوقيعات الأندلسية، تأليف: صلاح جرار، محمد محمود الدروبي

يتناول هذا الكتاب[1] فن التوقيعات الأندلسية من عدة أوجه: أولًا من ناحية المفهوم والعناية بها قديمًا وحديثًا، ثم يعرض لنشأة التوقيعات الأندلسية وتطورها، ثم يعرض في دراسة موجزة لأصحاب التوقيعات الأندلسية، ثم يدرس أغراض هذه التوقيعات وخصائصها، كل ذلك في صفحات لا تتجاوز المائة ورقة الأولى من هذا الكتاب، أمَّا النصيب الأعظم من الكتاب فقد انشغل فيه

(١) انظر: التوقيعات الأندلسية، صلاح جرار، محمد محمود الدروبي، منشورات جامعة آل البيت، الأردن، ١٤٢٠هـ.

المؤلف بنصوص التوقيعات الأندلسية، حيث أورد بعضها –قدر ما استطاع جمعه– حسب قائليها، وهو عَرضٌ في الحقيقة في غاية الأهمية للسبب الذي ذكرناه من قبل، وهو أنَّ معظم هذه التوقيعات متفرقة أو منتشرة في بطون الكتب، وأي محاولة لجمع شتاتها لها ميزانها العلمي والمعرفي.

لقد انشغلت هذه الدراسة بجانب الحصر والجمع لما تفرَّق من هذه التوقيعات في بطون المصادر التاريخية والأدبية، أمَّا دراستي فلها وجهة أخرى تختلف عن هذه الوجهة التي قصدتها هذه الدراسة.

–التوقيعات من المنظور البلاغي، حسن بنيخلف(١)

لم تقتصر هذه الدراسة على التوقيعات الأندلسية وإنما تشمل التوقيعات باعتبارها جنسًا أدبيًا في عمومها، وتدور هذه الدراسة حول عدة نقاط مهمة؛ حيث تدرس في النقطة الأولى ماهية التوقيعات، وتناولت النقطة الثانية حجاجية التوقيعات، وهو يتفق مع الوجهة البلاغية للدراسة، وتناولت النقطة الثالثة لغة التوقيعات وبلاغتها، ثم تبي النقطة الرابعة صور التوقيعات، ثم تدرس النقطة الخامسة قيم التوقيعات، ثم تبين الدراسة في النقطة السادسة الاقتباس باعتباره آلية حجاجية.

وتختلف هذه الدراسة عن دراستي في أمرين مهمين:

الأمر الأول: دارت هذه الدراسة حول فن التوقيعات في عمومه بين المشارقة والأندلسيين، وإن كانت تنشغل أكثر ما تنشغل بالتوقيعات التي أُنشِئت في المشرق الإسلامي، ولكن دراستي دارت حول التوقيعات الأندلسية في عصر الخلافة فقط، وإن كنت أضفتُ نُبذة عن توقيعات المشرق الإسلامي عند الحديث عن النشأة والتطور.

الأمر الثاني: إن الوجهة التي تناولتْ من خلالها هذه الدراسة فن التوقيعات كانت هي وجهة الدرس البلاغي، أي دراستها بلاغيًا، أمَّا وجهة دراستي فتهدف إلى الدراسة الموضوعية الفنية.

---

(١) انظر: التوقيعات من المنظور البلاغي، حسن بنيخلف، مجلة عالم الفكر، الكويت، العدد ١، المجلد ٤٤، يوليو– سبتمبر ٢٠١٥.

المحور الثالث

نشأة فن التوقيعات الأندلسية (نبذة مختصرة)

لفن التوقيعات رصيدٌ مشرقي كبير، فقد ارتبط في المشرق بنشأة الكتابة، والتي أخذت رقعتها في الازدياد مع مجيء الإسلام؛ لذلك نفقد أي إشارات تدل على أن ثمة توقيعات في العصر الجاهلي، وذلك لأنَّ الكتابة لم تكن بهذا الكم من الانتشار الذي تُستغل به في توجيه الحركة السياسية بين القبائل، وليس ثمة دولة ينشأ فيها تعاملات سياسية يتولد في ظلها فن التوقيعات، لذلك مع بناء الدولة الإسلامية واستقرارها وجدنا أثرًا للتوقيع يظهر في ربوع تلك الحياة، "فلعلَّ أقدم ما أُثر من توقيع في تاريخ الأدب العربي ما كتب به أبو بكر الصديق –ﷺ– إلى خالد بن الوليد –ﷺ– حينما بعث للصديق كتابًا يستأمره في أمر العدو، فوقَّع إليه أبو بكر "ادن من الموتِ توهَبُ لكَ الحياة"(١).

ثم انتشرت التوقيعات بعد ذلك في فترة الخلافة الراشدة لانتشار الكتابة، وقد حملت إلينا المصادر بعض ما أُثر من توقيعات في تلك الفترة، ولعل ما أورده الثعالبي في كتابه "خاص الخاص" ما يمكن أن يؤيد ذلك، فيذكر الثعالبي أنَّ سعد بن أبي وقاص كتب إِلَى عمر بن الْخطاب رَضِي الله عَنهُ من الْكُوفَة يَسْتَأْذِنهُ فِي بِنَاء دَار الْإِمَارَة، فَوَقع إِلَيْهِ: "إِبْنِ مَا يستر من الشَّمْس ويكن من الْمَطَر". وَكتب إِلَيْهِ نفر من أهل مصر يَشكونَ مَرْوَان بن الحكم، فَوَقع فِي كِتَابهمْ: " فَإِن عصوك فَقل إِنِّي بَرِيء مِمَّا تَعْمَلُونَ "(٢).

وكذلك ما كتبه الإمام علي كرم الله ردًا على ما كتبه الحسين بن علي وقد كتب إليه في شيء من أمر عثمان فوقَّع عليه علي كرم الله وجهه بقوله: "رَأْي الشَّيْخ خير من مشْهد الْغُلَام"(٣).

---

(١) فن التوقيعات الأدبية في العصر الإسلامي والأموي والعباسي، د. حمد بن ناصر الدخيل، ص ١٠. وانظر في توثيق هذا التوقيع: خاص الخاص، للثعالبي، تحقيق حسن الأمين، دار مكتبة الحياة، بيروت،لبنان، ص ٨٦.

(٢) خاص الخاص، للثعالبي، ص ٨٦.

(٣) السابق نفسه.

وكذلك كتب إِلَيْهِ الحضين بن الْمُنْذر بصفين: يَا أَمِير الْمُؤمنِينَ قد أسْرع السَّيْف فِي ربيعَة، وخاصة فِي أسرى مِنْهُم، فَوَقع إِلَيْهِ: بَقِيَّة السَّيْف أنهى عددا. وَوَقع مُعَاوِيَة: نَحن الزَّمَان من رفعناه ارْتَفع وَمن وضعناه اتضع. وَكتب إِلَيْهِ الْحسن بن عَليّ – رَضِي الله عَنْهُمَا – كتابا أغْلظ لَهُ فِيهِ القَوْل، فَوَقع إِلَيْهِ: لَيْت طول حلمنا عَنْك لَا يَدْعُو جهل غَيرنَا إِلَيْك. وَكتب زِيَاد إِلَى سعيد بن الْعَاصِ يخْطب إِلَيْهِ، فَوَقع فِي كِتَابه: " كلا إِن الْإِنْسَان ليطْغى أَن رَاه اسْتغنى" (سورة العلق: الأية ٦–٧) وَكتب عبد الله بن جَعْفَر إِلَى يزِيد يستوهبه جمَاعَة من أهل الْمَدِينَة، فَوَقع إِلَيْهِ: من عرفت فَهُوَ آمن. وَكتب إِلَيْهِ يسْأَله أَن يقْضِي عَنهُ ذمام نفر من بطانته وخاصته، فَوَقع: احكم لَهُم بآمالهم إِلَى انْقِضَاء آجالهم"[١].

هذه طائفة من التوقيعات أوردها الثعالبي في كتابه "خاص الخاص" تدلل على أنَّ هذا الفن –فن التوقيعات– عربي النشأة، وليس صحيحًا ما ذهب إليه بعضٌ من مؤرخي الأدب من أنَّ فن التوقيعات نشأ في أدبنا العربي بتأثير من الحضارة الفارسية في عهد الدولة العباسية، وقد عزَّز لديهم هذا الاعتقاد أنَّ ديوان الخراج كان يُكتب بالفارسية في العراق وبالرومية في الشام، وأنَّ الذين كانوا يتولونه الموالي من الفرس والروم، وقد كان ذلك قبل تعريب الدواوين في العصر الأموي، وقبل أن تتحول أقاليم العراق والشام ومصر إلى العربية الشاملة، وهو ما يُعرف بتعريب الأقاليم، يضاف إلى ذلك نبوغ أسرة البرامكة في كتابة التوقيعات حيث عملوا في ديوان الخلافة"[٢].

كلُّ ذلك عزز الرأي القائل بأنَّ فنَّ التوقيعات نشأ في أدبنا العربي بتأثير من الحضارة الفارسية، يقول الأستاذ أحمد أمين: "وضَرْب آخر من الأدبِ كان للفرسِ فيه أثرٌ كبير، وهو باب التوقيعات؛ ذلكَ أنَّ الفرسَ –قبل الإسلام–

(١) السابق، ص ٨٦.

(٢) التوقيعات الديوانية، د. راغب السرجاني، موقع قصة الإسلام على الرابط:
https://islamstory.com/ar/artical/23789/%D8%A7%D9%84%D8%AA%D9%88%D9%82%D9%8A%D8%B9%D8%A7%D8%AA-%D8%A7%D9%84%D8%AF%D9%8A%D9%88%D8%A7%D9%86%D9%8A%D8%A9

كانوا يُعنون بالبلاغة عناية كبرى، وكان لهم فيها تأليف كما حكى الجاحظ، وكان من أظهر عنايتهم بالبلاغة والحكم التوقيعات. قد كان الفرس –ككل الشعوب– يرفعون إلى ولاة أمورهم أوراقًا تتضمن طلبًا لشيء أو شكوى من شيء، نسميها نحن الآن عرائضَ، كانت تُسمى عند العربِ قِصصًا، سميتُ كذلاك على سبيل المجاز؛ لأنَّ القصة اسمٌ للمحكي في الورقة، فسمِّيَت الورقة نفسها قصة، وكانت تسمى رقاعًا، لصغر حجمها، تشبيها لها برقعة الثوب"(١).

ولكن على الرُّغم من النشأة الإسلامية الخالصة لفن التوقيعات إلا أنه في العصر العباسي "تطور مفهوم التوقيعات واكتسب معنى أدبيًا، فأصبحت تطلق على تلك الأقوال البليغة الموجزة المعبرة التي يكتبها المسئول في الدولة، أو يأمر بكتابتها على ما يرفع إليه من قضايا أو شكايات متضمنة ما ينبغي اتخاذه من إجراء نحو كل قضية أو مشكلة، وهي بهذا المفهوم أشبه ما تكون بتوجيه المعاملات الرسمية في الوقت الحاضر"(٢).

وقد مرَّ بنا من قبل ما أورده ابن خلدون من قيمة توقيعات جعفر بن يحيى البرمكي، حيث كانت "توقيعاته يتنافس البلغاء في تحصيلها للوقوف فيها على أساليب البلاغة وفنونها حتّى قيل إنّها كانت تباع كلُّ قصّة منها بدينار" (٣).

هذه نُبذة يسيرة عن تاريخ فن التوقيعات في المشرق الإسلامي آثرت إيرادها هنا لتكتمل دائرة الحديث عن نشأة فن التوقيعات الأندلسية وتطورها.

---

(١) ضحى الإسلام، لأحمد أمين، مطبعة الاعتماد، القاهرة، الطبعة الأولى،١٣٥١هـ، ج١/١٨٧-١٨٨.

(٢) فن التوقيعات الأدبية في العصر الإسلامي والأموي والعباسي، د. حمد بن ناصر الدخيل، ص٨.

(٣) ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ص ٣٠٦.

وإذا ما انتقلنا إلى الجانب الأندلسي نجد أنَّ العربَ قد حملوا "معهم إلى الأندلس جميع علومهم وفنونهم التي تشكَّلت منها ثقافتهم، فنقلوا الشعر والغناء والموسيقى والخطابة والرسائل والتوقيعات وغير ذلك"(١).

ولكن التوقيعات ظهرت متأخرة نسبيًا في الأندلس، وهذا لأنها مرتبطة باستقرار الدولة، أو بالأدق مرتبطة بالكتابة الديوانية التي ترعرع في رحابها هذا الفن، ومرحلة الاستقرار هذه لم تتحقق إلا في عهد الإمارة الأموية، والذي بدأ بعد الرحمن الداخل سنة (١٣٨ هجرية) (٢)

وكان عبد الرحمن الداخل ممن اشتهر بالفصاحة والبلاغة وبكتابة التوقيعات الحسنة البليغة(٣)، ويذكر ابن عذاري في كتابه "البيان المغرب" أنَّ عبد الرحمن الداخل كان فصيحا، بليغا، حسن التوقيع، جيد الفصول، مطبوع الشعر(٤).

ويورد ابن عذاري بعضًا من توقيعاته، حيث يقول: "وكتب عنه أمية بن زيد كتابا إلى بعض عماله، يستقصره فيما فرط من عمله؛ فأكثر وأطال الكتاب، فلما لحظه عبد الرحمن بن معاوية، أمر بقطعه، وكتب بخط يده: أما بعد، فإن يكن التقصير لك مقدمًا، فعد الاكتفاء أن يكون لك مؤخرًا، وقد علمت بما تقدمت؛ فاعتمد على أيهما أحببت! (٥)"

---

(١) التوقيعات الأندلسية، نشأتها وتطورها في العصر الأندلسي، رفيع أحمد، مقال على شبكة الانترنت تحت هذا الرابط: https://www.aqlamalhind.com/?p=710

(٢) موجز تاريخ الأندلس من الفتح حتى سقوط غرناطة، د. طه عبد المقصود، دار الثقافة العربية، القاهرة، ١٤٢٠ هـ، ص ١.

(٣) التوقيعات الأندلسية، نشأتها وتطورها في العصر الأندلسي، رفيع أحمد، ص٤.

(٤) البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، لابن عذاري المراكشي، تحقيق ومراجعة: ج. س. كولان، إ. ليفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت – لبنان، الطبعة: الثالثة، ١٩٨٣، ٥٨/٢.

(٥) السابق نفسه.

هذا مثال واضح على أنَّ فنَّ التوقيعات وُجد في البيئة الأندلسية مع مرحلة الاستقرار ونشأة الكتابة الديوانية التي تعد مظهرًا من مظاهر بسط النفوذ والسيادة والحكم(١).

وكان عصر بني أمية في الأندلس (عصر الإمارة) والذي امتد من (١٣٨ هـ) وهي السنة التي تولَّى فيها عبد الرحمن الداخل حكم الأندلس حتى سنة (٣١٦ هـ) عصر ازدهار في شتى مناحي الحياة السياسية والاقتصادية والعلمية والعسكرية، وانعكس هذا الازدهار على فن التوقيعات، فوجد أرضًا خصبة لنموه، حتى إنَّ ما وصلنا من رصيد لفن التوقيعات الأندلسية عن عصر الإمارة ليمثل وحده ثلث ما أثر من توقيعات عن الدولة الإسلامية الكبرى في الأندلس.

وقد نقل إلينا ابن الأبار القضاعي (المتوفى ٦٥٨ هجرية) توقيعًا لعبد الرحمن الداخل يعكس مدى بلاغته وفصاحته، ويدل في الوقت نفسه أنَّ فن التوقيعات الأندلسية نشأ نشأة عربية خالصة في الأندلس، يقول ابن الأبار(٢): وَحكى أَبُو عمر أَحْمد بن مُحَمَّد بن فرج صَاحب كتاب الحدائق الْمُؤلف للْحكم الْمُسْتَنْصر بِاللَّه من أشعار الأندلسيين قَالَ: بَلغنِي أَن بعض الْوُفُود من قُرَيْش كتب إِلَى الإِمَام عبد الرَّحْمَن بن مُعَاوِيَة رَحمَه الله يستعظم حَقه عَلَيْهِ بالرحم ويستقلُ حَظه مِنْهُ بالمطمع فَوَقع فِي ظهر كِتَابه:

شَتان من قَامَ ذَا أمتعاض=منتضى الشفرتين نَصْلَا

فَجَاب قَفْراً وشقَّ بَحرًا ... ساميا لجة ومحلا

فشَاد مجدًا وبزَّ مُلكًا ... ومنبراً للخِطَابِ فَصْلَا

وجنَّد الْجُندَ حِين أودى ... ومصَّر الْمصر حِين أخلى

(١) التوقيعات الأندلسية، نشأتها وتطورها في العصر الأندلسي، رفيع أحمد، ص٤.

(٢) الحلة السيراء، لابن الأبار القضاعي البلنسي (ت ٦٥٨ هـ)، تحقيق د. حسين مؤنس، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٨٥ م: ص ٤٠.

ثـــمَّ دَعَـــا أَهلـــه جَمِيعًـــا حَيْـــثُ أنتـــأوا أَن هَلُـــمَّ أَهـــلا
فجَـــاء هَـــذَا طريـــدَ جـــوعٍ شـــريدَ ســـيفٍ أيـــاد قـــتلا
فَنـــال أمنًـــا ونـــالَ شَـــبعًا وَحَـــازَ مَـــالا وَضـــم شَـــملا
ألـــمْ يكـــن حـــق ذَا علـــى ذَا أعظـــم مـــن مُـــنْعِمٍ وَمَـــولى

وقد نقل إلينا صاحب "نفح الطيب" بعض التوقيعات الأخرى لعبد الرحمن الداخل، وقد مثَّلت فيها التوقيعات التي دارت بينه وبين بدر مولاه أغلب هذه التوقيعات، ذلك أنَّ بدر ربما كان يرى نفسه شريكًا في الفتح والملك، وأن ما وصل إليه من حظوة ومكانة أقل بكثير مما يستحقه، فقد تعرَّض لكثير من الأخطار في سبيل ذلك.

ومن توقيعات عصر الإمارة كذلك ما أورده ابن حيَّان القرطبي في كتابه "المقتبس في أنباء الأندلس" من توقيع لعبد الرحمن الأوسط (٢٠٦ هـ: ٢٣٨هـ) فقد كتبَ إليه بعض عماله يسأله تولية عمل رفيع لم يكن على شاكلته، فوقع على ظهر كتابه " من لم يعرف وجه مطلبه كان الحرمان أولى به"[١].

ويعكس هذا التوقيع بلاغة عبد الرحمن الأوسط، حيث كان صاحب منزلة في البلاغة، يقول ابن حيان فيما يرويه عن أحمد بن محمد الرازي: " كان الأمير عبد الرحمن مقدم الطبقة في البلاغة، مطبوعاً في الكتابة، مقتدراً على ما حاول من سني البيان المنشور والمنظوم، مؤثراً لمن يحسنهما، مقرباً بوسيلتهما، وكان له التوقيع الوجيز والقريض المستحسن"[٢].

ويورد لنا ابن حيان في "المقتبس" توقيعًا آخر له إلى ابنه المنذر – وكان من بين ولده بليغاً مفوهاً – فكتب إليه يسأله أن يأذن له في اعتلاء المنبر بالبلد الذي كان يليه له ليقيم الجمعة ويخطبهم، ليحيي رسوم سلفهم وينوه به في

(١) المقتبس، لابن حيان: ص ٢٢٢.
(٢) السابق نفسه.

إتباعهم. فوقع على ظهر كتابه: "قالت الحكماء: لو كان الكلام من فضة، لكان الصمت من ذهب، وإني لأشفق عليك مما تحسنه، فكيف مما توهم عليك بعض التقصير فيه؟"(١).

إنَّ كل هذه التوقيعات تؤكد أنَّ هذا الفن شهد نوعًا من الازدهار في عصر الإمارة الذي امتدَّ حتى عام ٣١٦ هجرية، ثم هي تعكس أمرين مهمين هما:

أولًا: إنَّ أمراء ذلك العصر كانوا على درجة من البلاغة والفصاحة ما انعكس على توقيعاتهم، لدرجة أن بعض هذه التوقيعات قد أخذ مساحة لا بأس بها تصلح أن تدور عليها دراسات أدبية ولغوية، وقد مرَّ بنا من قبل توقيع عبد الرحمن الداخل على الخطاب الذي أرسله إليه بدر مولاه.

ثانيًا: إنَّ وجود التوقيعات وانتشارها بهذه الدرجة يعكس حالة الاستقرار السياسي في الدولة الإسلامية في الأندلس في عصر الإمارة، خاصة في إمارة عبد الرحمن الداخل حتى نهاية عبد الرحمن الأوسط، والتي امتدت حتى سنة ٢٣٨ هجرية.

فالتوقيعات غالبًا تنشأ في حضن الكتابة الديوانية، والكتابة الديوانية لا توجد إلا في مراحل الاستقرار، وامتداد التوقيعات على طول فترة عصر الإمارة إلا قليلًا يدل على ذلك.

فإذا ما انتقلنا إلى عصر الخلافة، والذي امتدَّ من ٣١٦ هجرية وهي بداية فترة خلافة عبد الرحمن الناصر حتى عام ٤٢٢ هجرية فنجد أنَّ التوقيعات لم تعد تقتصر على الأمور السياسية بل امتدت إلى أمور اجتماعية في حياة الناس، فيروي ابن سعيد في المغرب أنه رُفِعَ للناصِرِ أَن تَاجِرًا زعم أَنه ضَاعَت لَهُ صرة فِيهَا مائَة دِينَار ونادى عَلَيْهَا وَاشْترط أَن يهب للآتي بهَا عشرَة دَنَانِير فجَاء بهَا رجل عَلَيْهِ سمة خير ذكر أَنه وجدهَا فَلَمَّا حصلت فِي يَده قَالَ إِنَّهَا كَانَت مائَة وَعشرَة وَإِن الْعشْرَة الَّتِي نقصت مِنْهَا أَخذهَا الَّذِي أَتَى بهَا وأبى أَن

(١) المقتبس، لابن حيان: ص ٢٢٢.

يدْفع لَهُ مَا شَرط، فَوَقَّع النَّاصِر: "صدق التَّاجِر وَالرجل الَّذِي وجد المَال وَلَوْلَا صدق الرجل مَا أَتَى بِشَيْء مَجْهُول فاردد عَلَيْهِ الْمِائَة وناد على مَال التَّاجِر فَإِنَّهُ مائَة وَعشرَة"، فَكَانَ ذَلِك من ملحه(١).

فهذا شأن من شؤون حياة الناس ومعاملاتهم سلكت فيه التوقيعات مسلكًا واضحًا، ولم تعد تقتصر على شؤون السياسة فقط، وهذا تطوُّر واضح في استغلال هذا الجنس الأدبي في الحياة الأندلسية.

حتى في فترات الاضطراب التي جاءت في نهاية عصر الخلافة، وغالبًا ما كانت بعد سنة ٤٠٠ هجرية لا نعدم وجود فن التوقيعات، فقد حافظ هذا الفن على وجوده في الفترة الأندلسية بكاملها، فيروي لنا ابن الأبار في الحلة السيراء(٢) أنَّ القَاضِي أَبَا الْقَاسِم بن مِقْدَام كتبَ إلى المستعين بالله سليمان بن الحَكَم (ت ٤٠٧ هجرية) يشكو إِلَيْهِ ضيق حَاله وَكَانَ مَعَه فِي تجوله مَعَ البربر بِشعر أَوله:

أهل ترْضى لعبدك أَن يذالا وَأَن يبْقى على الدُّنْيَا عيالا

فَبعث إِلَيْهِ بصلَة وَكِسْوَة ووقّع لَهُ على ظهر كِتَابه:

معَاذ الله أَن تبقى عيالا وَأَن ترْضى لمثلك أَن يذالا

وَكَيف وَأَنت مُنْقَطع إِلَيْنَا وَقد علقت يداك بِنَا حِبَالًا

ودونك من نوافلنا يسير وَلَكنَّا انتقيناه حَلَالا

هذه نماذج من توقيعات عصر الخلافة في الأندلس، والذي امتد من ٣١٦ هجرية حتى ٤٢٢ هجرية، حيث تؤكد هذه النماذج أن فن التوقيعات الأندلسية حافظ على مكانته في تلك الفترة، بل وخطا خطوة أخرى نحو استغلاله في الحياة الاجتماعية.

---

(١) المغرب في حُلى المغرب: ١٨٥/١- التوقيعات الأندلسية، صلاح محمد جرار ومحمد محمود الدروبي، منشورات جامعة آل البيت، ١٤٢٠ هـ، ص ١١٧.

(٢) الحلة السيراء: ١٢/٢.

فإذا ما انتقلنا إلى عصر ملوك الطوائف والذي شغل الفترة من ٤٢٢ هجرية حتى ٤٨٤ هجرية نجد أثرًا واضحًا لفن التوقيعات في الحياة السياسية وغيرها، فيروي لنا المقري في "نفح الطيب" أن الأذفونش كتب إلى المعتمد ابن عباد (ت ٤٨٨هـ) كتابًا يتهدده ويسخر منه بعدما زحف إليه بجيش جرار، حيث كتب إليه قائلاً: "كثر بطول مقامي في مجلسي الذبان، واشتد علي الحر، فأتحفني من قصرك بمروحة أروح بها على نفسي، وأطرد بها الذباب عن وجهي، فوقَّع له ابن عباد بخط يده في ظهر الرقعة: قرأت كتابك، وفهمت خيلاءك وإعجابك، وسأنظر لك في مراوح من الجلود اللمطية تروح منك لا تروح عليك، إن شاء الله"(١).

كذلك يروي لنا ابن بسام في الذخيرة توقيع المعتمد بن عباد على أبيات الوزير الكاتب ابن الدَّباغ(٢)، ويروي ابن سعيد في "المُغرب في حُلى المغرب" توقيع المعتصم بن صمادح التجيبي (ت ٤٤٦ هجرية) إلى ابن عمار(٣)، إضافة إلى ما يرويه ابن الأبَّار في "الحُلة السَّيراء" من توقيع ذي الرئاستين أبي مروان عبد الملك بن هذيل بن رزين (ت ٤٩٦هـ) إلى مؤدب الأطفال(٤).

كل هذه توقيعات حدثت في عصر ملوك الطوائف، تدل دلالة واضحة على أنَّ هذا الفن ظلَّ محافظًا على مكانته حتى هذا العصر والذي شغل الفترة من (٤٢٢هـ: ٤٨٤ هـ).

فإذا ما انتقلنا إلى عصر المرابطين والذي امتد من سنة (٤٨٤ هـ: ٥٢٤هـ) فيورد لنا ابن ليون التجيبي في كتابه "لمح السحر من روح الشعر" توقيع يوسف بن تاشفين (ت ٥٠٠ هـ) في عزل أحد ولاته(٥)، وكذلك يروي لنا

(١) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب: ٣٥٨/٤.

(٢) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: ٢٥٣/٥.

(٣) المغرب في حُلى المغرب: ١٩٧/٢.

(٤) الحلة السيراء: ١١٣/٢.

(٥) لمح السحر من روح الشعر: ص ٢٥٤.

الكُلاعي في "إحكام صنعة الكلام"[١] ولسان الدين بن الخطيب في "الإحاطة"[٢]، والمقري في "نفح الطيب"[٣] توقيع يوسف بن تاشفين على رسالة ألفونسو السادس، والتي جاء في آخرها "والجواب ما ترى لا ما تسمع".

أمَّا عصر الموحدين الذي امتدَّ من الفترة (٥٢٤ هـ: ٦٦٧هـ) فيروي لنا المقري في "نفح الطيب" توقيع عبد المؤمن الموحدي (ت ٥٥٨هـ) على توسل وزيره أبي جعفر[٤]، والذي جاء على هيئة آية قرآنية، وكذلك توقيع الخليفة المنصور يعقوب الموحدي على خطاب ألفونسو الثامن ملك قشتالة[٥]، وتوقيعه أيضًا إلى بعض عماله لينظر رجلًا لتأديب أولاده[٦].

ومن توقيعات عصر الموحدين كذلك ما يرويه أبو زرع الفاسي في "الأنيس المطرب" من توقيع أبي يعقوب الموحدي ردًا على خطاب ألفونسو الثامن ملك قشتالة[٧].

وكذلك ما جاء في "زاد المسافر وغرة محيَّا الأدب السافر"[٨] من توقيع لشاعر الخلافة الموحدية أبو العباس الجراوي (ت ٥٦٠هـ)، وكذلك ما أورده ابن الأبَّار في "التكملة لكتاب الصلة" من توقيع هند جارية أبي محمد عبد الله بن مسلمة الشاطبي لأبي عامر بن نيق[٩].

---

(١) إحكام صنعة الكلام: ص ١٦٣.

(٢) الإحاطة في أخبار غرناطة: ٣٠٤/٤.

(٣) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب: ١٠٢/٣.

(٤) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب: ١٨٦/٣.

(٥) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب: ١٠٢/٣.

(٦) السابق: ١٠٤/٣.

(٧) الأنيس المطرب: ص ٢٢١.

(٨) زاد المسافر: ص ٥٠.

(٩) التكملة لكتاب الصلة: ٢٥٩/٤.

فإذا ما انتقلنا إلى آخر العصور السياسية في الأندلس، وهو عصر دولة بني الأحمر، والذي امتد من سنة ٦٣٥ هـ حتى سنة ٨٩٧ هـ فيروي لنا لسان الدين بن الخطيب في "الإحاطة في أخبار غرناطة"(١)، وكذلك المقري في "نفح الطيب"(٢). توقيع الوزير أبي عبد الله محمد بن الحكيم الرندي (ت ٧٠٨هـ) على أبيات الفقيه محمد بن غالب الطريفي، وكذلك يروي لنا ابن الخطيب توقيع السلطان محمد بن محمد بن يوسف بن نصر ثاني ملوك بني الأحمر (ت ٧٠١هـ) على رقعة شخصٍ كان يطلب التصريف في بعض الشهادات(٣).

ويروي لنا ابن ليون في "لمح السحر" توقيع الرئيس أبي عثمان سعيد بن الحكم القرشي على جزء استعاره فأصلح به خللًا(٤).

إنَّ هذه التوقيعات تعكس وجود هذا الفن حتى آخر العصور السياسية في الأندلس عصر دولة بني الأحمر.

(١) الإحاطة في أخبار غرناطة: ٥٠٦/٥.

(٢) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب: ٤٩٠/١.

(٣) الإحاطة في أخبار غرناطة: ٣٢٧/١.

(٤) لمح السحر: ص٢٥٩.

المحور الرابع

توقيعات عصر الخلافة (دراسة موضوعية فنية)

تتناول الدراسة في هذا المحور جانبين مهمين: الجانب الأول يتمثل في دراسة موضوعات توقيعات عصر الخلافة، ذلك الذي امتد من سنة ٣١٦ هجرية حتى سنة ٤٢٢ هجرية، وهذه الدراسة الموضوعية تعكس بعضًا من ملامح التطور في موضوعات هذا الفن الذي ظنَّ البعض أنَّ موضوعاته ارتبطت بالحياة السياسية فقط دون الخوض في غمار الحياة الاجتماعية.

أمَّا الجانب الثاني فهو جانب الدراسة الفنية تلك التي تدور حول دراسة لغة هذه التوقيعات، ومحاولة الإجابة على السؤال المطروح سابقًا: هل تأثرت لغة التوقيعات في عصر الخلافة باللغات الموجودة في الحياة الأندلسية فمالت نحو الركاكة والضعف أم ظلت محافظة على فصاحتها وبلاغتها؟ إضافة إلى دراسة بعض القضايا اللغوية في هذا الفن. ثم الدراسة الفنية لتوقيعات عصر الخلافة المتمثلة في دراسة مسائل الصورة الفنية في هذه التوقيعات.

أولًا: الدراسة الموضوعية

لقد وقفت من خلال البحث في المصادر المختلفة (الأدبية والتاريخية) التي تناولت دولة الإسلام في الأندلس على ستة عشر توقيعًا تمثل جملة توقيعات عصر الخلافة، وقد وردت هذه التوقيعات في عدد من المصادر منها: المقتبس في أنباء الأندلس، لابن حيان القرطبي (المتوفى ٤٦٩ هجرية)، والذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، لابن بسام الشنتريني (ت ٥٤٢ هجرية)، والحُلَّةُ السَّيراء، لابن الأبار القُضَاعِي (ت ٦٥٨ هجرية)، والمُغْرب في حُلى المغرب، لأبي الحسن على بن موسى بن سعيد الأندلسي (ت ٦٨٥ هجرية)، البيَانِ المُغْرِب في أخبارِ الأندلس والمَغرب، لابن عذاري المراكشي، أبي عبد الله محمد بن محمد (المتوفى بعد سنة ٧١٢ هجرية)، نفح الطِيبِ من غصن الأندلس الرطيب، لشهاب الدين المقري (ت ١٠٤١ هـ)...إلى غير ذلك من المصادر التي سنعرض لها أثناء توثيق توقيعات الدراسة الموضوعية.

وقد توزعت هذه التوقيعات على عدة موضوعات تمثل في مجملها موضوعات توقيعات عصر الخلافة، وهي تتمثل فيما يلي:

-الفخر والاعتزاز بالقوم:

من التوقيعات التي تقع تحت هذا الموضوع توقيع المنصور بن أبي عامر الأصغر ملك بلنسية ردًا على كتاب صاحب دانية والذي أرسله إليه ولم يضمنه غير بيت الحُطيئَةِ:

دَعِ المكَارمَ لا تَرْحَلْ لِبُغيتَها واقْعُدْ فإنَّكَ أنتَ الطَاعمُ الكَاسِي

فأخرجت المنصور، وأقامته وأقعدته، فأحضر وزيره أبا عامر ابن التاكرني فكتب عنه:

شَتَمتْ مواليها عبيدُ نِزَار شيمُ العبيدِ شَتيمةُ الأحرارِ

فسلا المنصور عما كان فيه(١).

وهذا التوقيع من التوقيعات المهمة التي تدلل على استغلال الموروث كجزء من بنية نص التوقيع، وهو موروث مشرقي يتمثل في بيت الحطيئة الذي استغله صاحب دانية في رسالته إلى المنصور بن أبي عامر الأصغر، وهذا يدل على مقدار حضور ذلك الموروث في الذهن الأندلسي.

-التهديد والوعيد:

لقد ارتبط فن التوقيعات في جزء كبير منه بالحياة السياسية، فقد نشأ في رحاب الكتابة الديوانية؛ لذلك نجد بعض التوقيعات تدخل تحت دائرة موضوع التهديد والوعيد، ومن هذه التوقيعات التي تدخل تحت هذا الموضوع توقيع المنصور بن أبي عامر (ت ٣٧٩هجرية) على كتاب رُفِعَ عليه من أحد خدمه وقد طال سِجنه، فوقَّع المنصور على كتابه بقوله: لا سبيل إلى إطلاقه حتى يلحق بأمّه الهاوية(٢). وقد عُرِّف الرجل بتوقيعه، فاغتم وأجهد نفسه في الدعاء والمناجاة،

(١) انظر: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب: ١٣٢/٤.

(٢) انظر: نفح الطيب: ٤١٩/١.

فأرق المنصور إثر ذلك، واستدعى النوم فلم يقدر عليه، وكان يأتيه عند تنويمه آتٍ كريه الشخص عنيف الأخذ يأمره بإطلاق الرجل، ويتوعّده على حبسه، فاستدفع شأنه مراراً إلى أن علم أنّه نذير من ربّه، فانقاد لأمره، ودعا بالدواة في مرقده فكتب بإطلاقه، وقال في كتابه: "هذا طليق الله على رغم أنف ابن أبي عامر، وتحدث الناس زماناً بما كان منه"(١).

ومن التوقيعات التي تدخل تحت هذا الموضوع أيضًا توقيع عبد الرحمن الناصر (ت ٣٥٠هجرية)

وقد كتب لَهُ مُحَمَّد بن عبد الرَّحْمَن الْمَعْرُوف بالشيخ الْمُمْتَنع بحصن لقنت فِي جَوَاب استنزاله لَهُ مَا أوجب أَن كَانَ فِي جَوَاب النَّاصِر لَهُ "وَلما رَأَيْنَاك قد تذرعت بِإِظْهَار اتقاء الله رَأينَا أَن نعرض عَلَيْك أَولا مَالا بُد لَك مِنْهُ آخراً وَلَيْسَ من أطَاع بالمقال كمن أطَاع بعد الفعال فبادر مستسلماً إِلَى قرطبة"(٢).

ومن التوقيعات التي تدخل تحت هذا الموضوع أيضًا توقيع عبد الرحمن الناصر (ت ٣٥٠ هـ) على كتاب مطرِّف بن منذر التُجيبي، وذلك عندما ثار مطرِّف في قلعة أيوب مستعينًا بالمشركين، فأرسل له الخليفة الناصر كتابًا يطلب منه التبرؤ من النصارى، ووقَّع في الكتاب الذي أنفذه بذلك أسطرًا بخطه يؤكد له بما بذله من نفسه، ويبسط له أن يتوثق منه في إتمامه، وحُفظ عن مطرِّف أنه قال لمن حضره عند وقوفه على كتاب الناصر: أأقطع يميني بشمالي؟! فوقَّع عبد الرحمن الناصر على ظهر الكتاب المردود: "كان جوابُ مطرِّف بن منذر عند قراءته لهذا الكتاب بما بُذل له وسئِلَ من أمر الشرك فيه أن قال لمن حضره: أأقطع يميني بشمالي، فجعل المرتدُ الشِّركَ والخَلعان يمينه

(١) السابق نفسه.

(٢) انظر: المُغرب في حُلى المغرب، لابن سعيد المغربي: ١/١٨٤.

والإسلام والسلطان شماله، فبعدًا وسحقًا لمثله، أولى له ثمَّ أولى، لقد ضلَّ سعيهُ وخَسرِ خسرانًا مُبينًا"[١].

-الإخوانيات:

من التوقيعات التي تدخل تحت هذا الموضوع توقيع المستعين بالله (سليمان بن الحَكم ت ٤٠٧هـ) على كتاب القاضي أبو القاسم بن مقدام، وقد كتب إليه يشكو إِلَيْهِ ضيق حَاله وَكَانَ مَعَه فِي تجوله مَعَ البربر بِشعر أَوله[٢]:

أهل ترْضى لعبدك أَن يذالا وَأَن يبْقى على الدُّنْيَا عيالا

فَبعث إِلَيْهِ بصلَة وَكِسْوَة ووقّع لَهُ على ظهر كِتَابه

معَــاذ الله أَن تبقــى عيــالا وَأَن ترْضــى لمثلــكِ أَن يــذالا

وَكَيــف وَأَنــت مُنْقَطــع إِلَيْنَــا وَقــد علقــت يــداك بِنَــا حِبَــالًا

ودونــك مــن نوافلنــا يســير وَلَكنَّــا انتقينــاه حَــلَالا

ومن التوقيعات التي تدخل تحت هذا الموضوع توقيع المستظهر بالله سليمان بن الحكم (ت ٤١٤هـ) على شعرٍ رُفع إليه تهنئة بالخلافة[٣]، حيث رفع إليه شاعر يوم بيعته شعراً له كتبه في رقٍ مبشور، واعتذر من ذلك بهذين البيتين:

الــرَّق مَبْشــورٌ وفيــهِ بِشــارة بِبقــا الإمــامِ الفَاضِلِ المُستظهرِ

مَلِكٌ أعادَ العيشَ غَضًا شَخصه وكــذا يكــونُ بــهِ طــوالِ الأدهــرِ

فأجزل المستظهرُ باللهِ صِلته، ووقَّع على ظهر رقعته بهذه الأبيات:

قَبِلنَــا العُــذرَ فــي بشــر الكِتــابِ لما أحكمتَ من فصلِ الخِطابِ

وجُــدْنَا بــالجَزاءِ بمــا لــدَينا عَلَــى قــدرِ الوجــودِ بــلا حِســابِ

فــنحنُ المُنعمــون إذا قَــدَرنا ونحــنُ الغَــافرون أذَى الــذِّئابِ

---

(١) انظـر: المقتـبس، لابـن حيـان (تحقيـق الحجـي): ٣٩٦/٥- التوقيعـات الأندلسـية: ص١٢٣.

(٢) انظر: الحلة السيراء: ١١/٢.

(٣) انظر: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: ٥٨/١.

ونحـنُ المُطْلعـون بـلا امْتـراءٍ شُموسَ المجدِ من فَلِك الثَّوابِ

ومن توقيعات عصر الخلافة التي تدخل تحت موضوع الإخوانيات أيضًا توقيع المستعين باللهِ (سُليمان بن الحكم) المتوفى (٤٠٧هـ) على كتاب رُفع إليه من بعض خدمه معتذرًا، فوقَّعَ على ظهر كتابه[١]:

قَرَأنَـا مَـا كتبـت بِـهِ إِلَيْنَـا وعُـذْرك وَاضـحٌ فِيمَـا لَـدَينا

وَمـن يكـن القَـريض لَـهُ شَـفِيعًا فَتـركُ عتابـه فـرضٌ علينَـا

وكتب الْوَزِير يُوسُف بن أَحْمد الْبَاجِيّ إِلى المُستعين بالله أبيَاتًا يذكرهُ بِزَمَانِهِ مَعَه ويمتّ بخدمته لَهُ ويسأله تَجْدِيد العارفة لَدَيْهِ أَولهَا[٢]:

قل لِلْإِمَام المستعين وَرَسُول رب الْعَالمين

فوقّع لَهُ سُلَيْمَان:

أَنْـت المصـدَّق عنـدنَا بِصَـرِيح ودِّ مسـتبين

فـاربع عَلَيْـك فهّمنـا توطيـد أَمـر الْمُسـلمين

فَـإِذا توطـد واسـتقام وخـابَ ظـنُّ الحَاسـدين

أَصـبَحتَ مـن دُنيـاكَ فِـي أَعلَـى مَحـلِّ الآملـين

السُّخريَةُ والظُرف:

هذا موضوع من الموضوعات التي اقتحمها فن التوقيعات في الحياة الأندلسية، فمن التوقيعات التي تدخل تحت هذا الموضوع توقيع القاضي منذر بن سعيد البلوطي (ت ٣٥٥هـ) على ما ذكره بعض المجانين والظرف، فقد كان في هذا القاضي منذر دعابة يعرض بها ويتعرض له بها؛ فكتب إليه قوم من أهل المجانة والظرف[٣]:

قُـلْ لِقَاضـي الجَماعـة البَلُّـوطي مـا تـرى فـي خَريـدة كـالخُوطِ

---

(١) انظر: الحلة السيراء: ٢/١١.

(٢) السابق نفسه.

(٣) البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب: ٢/٢٥٠.

ناكهـــا للثـــواب قَـــوْمٌ ظِـــرافٌ هَلْ تَرَى سيِّدِي بذا مِنْ سُقُوطِ

فوقع لهم في كتابهم: (لا منفردة) . فقال له من حضر: (ما هذا؟) . فقال: (أردت لا أرى ذلك) . فقالوا: (لا يفهم عنك إلا غيره) . فقال: (كل يجاوب على معتقده) !.

الحكمَةُ:

من التوقيعات التي تدخل تحت موضوع الحكمة توقيع أحمد بنِ سعيدِ بن حزم (ت ٤٠٠هـ) على كتابِ القَاسم أحمد بن أبي بكر الزبيدي[١]، فقد كتب إليهِ أبو القاسم بن الزبيدي كتاباً يرغب فيه إليه أن يحسن العناية به في بعض الأمور، وكتب في آخرِ الكتاب:

ومِنْ نَكَدِ الدُّنيا عَلَى الحُرِّ أنْ يَرَى عَدواً له مَا من صَداقتهِ بُدُّ

فحَوَّلَ أحمد بنِ سَعيدِ بن حَزْمٍ الكتابَ ووقَّعَ على ظَهْرِهِ ولم يَزِد:

ومِنْ نَكَدِ الدُّنيا عَلَى الحُرِّ أنْ يَرَى صَديقًا له مَا مِن عَداوتِهِ بُدُّ

وقد تجلَّت الحكمة هنا في صياغة البيتِ الشعري المعبرِ عن الموقف أولًا، ثم في بلاغة الردِ ثانيًا.

ومن التوقيعات التي تدخل تحت هذا الموضوع أيضًا توقيع عبد الرحمن الناصر (ت ٣٥٠ هـ) على كتابِ معد بن إسماعيل الشيعي أمير إفريقيه، وقد أَفْحَشَ فيهِ السب، وكانت بينهما منافرة، فوقَّعَ النَّاصِرُ على كتَابِهِ: "يا هَذَا عَرَفْتَنَا فَسَبَبْتَنَا، وجَهلْنَاكَ نحنُ فأَمْسَكنَا عنكَ"[٢]. لم يَزِدهُ على هذَهِ كلمة واحِدة.

المواساة:

وهذا الموضوع من الموضوعات الاجتماعية التي تدلل على أنَّ فن التوقيعات لم يعد يقتصر في محيطه على معالجة القضايا السياسية فقط، بل كان

(١) جذوة المقتبس: ١٠٦/١.

(٢) الزهراتِ المنثورة: ٦٩/٢- التوقيعات الأندلسية: ص١٢٣.

صالحًا أيضًا أن يعالج تلك المسائل الاجتماعية، وهذا يدلل على قيمة ذلك الفن– فن التوقيعات.

ومن التوقيعات التي تدخل تحت هذا الموضوع توقيع الحكم المستنصر (ت ٣٦٦هـ) على كتاب الوزير جعفر بن عثمان المصحفي، حيث كتب إلى الخليفة كتابًا يخلفُهُ في أهلِهِ وبيتِهِ بعد أن ألمَّت به نازلة لم يشك معها في اقترابِ أَجَلِهِ، فوقَّع الحكم المستنصِرُ على ظهر كتابه[1]: "قَرأنَا كِتَابكَ بما ذَكرتَ من اشْتِدَادِ حالِكَ ووقُوعِ يأْسِكَ وارْتِفَاعِ رجائِك، فعَظمَ علينَا ذَلكَ وكَثُرَ غمُّنا به، وأشفقنا منه، ونرجو أنْ يأتي اللهِ بخيرٍ ويُعقِّب بعافية، فإنْ كان ما لابدَ من كونِهِ قريبًا أو بعيدًا، أو تخَطانا، فكلُّ ما سألتَ ورَغبتَ في نفسِكَ وأهلِكَ، ومن تَتَخلَّف، فعلى أفضلِ الذي رَغبتَهُ وأردتَهُ وأمَّلته ورَجَوتَهُ، فما أَعْلَمُ رُزْيَة أعْظَمُ من رُزْيَتِكَ لدينَا؛ لما بلونَاهُ من شُكْرِك ومجهُودِ حُرْمتك ومحمودِ صُحْبَتك، وإنَّا لم يُرد علينَا من قِبَلِكَ قطُّ ما أغمَّنا ولا ما أَنْكَرنا، ولا سوءُ ثناءٍ قط بشيء ظَاهرًا ولا باطِنًا، فإنْ تكن المصيبَةُ فإنَّا للهِ وإنَّا إليه راجعون، وإنْ تكن العَافِيه فالحمدُ للهِ ربِّ العالمين على جديدِ إفْضَالِهِ وجَميلِ بلائِهِ وعلى كلِّ أحوالِهِ، والسَّلامُ عليكَ ورحمة اللهِ وبركاته".

إلى غير ذلك من الموضوعات التي عالجها فن التوقيعات في فترة عصر الخلافة في الحياة الأندلسية، وتثير الدراسة الموضوعية هذه عدة مسائل مهمة نناقشها فيما يلي:

أولًا: ورد في بعض توقيعات عصر الخلافة في الأندلس توظيف للموروث الشعري العربي في المشرق الإسلامي، مثل كتاب صاحب دانية إلى المنصورِ بن أبي عامرِ الأصغر ملك بلنسية، ولم يضمّنه غير بيت الحُطيئَةِ:

دَعِ المكَارمَ لا تَرْحَلْ لِبُغيتَها واقْعُدْ فإنَّكَ أنتَ الطَاعمُ الكَاسِي

(١) المقْتَبس (تحقيق حجي): ص٦٩–٧٠.

وهذا التوظيف حقيقة يدل على أنَّ الموروث الشعري الشرقي ما زال له الحضور القوي في الذهن الأندلسي حتى عصر الخلافة الذي امتدَّ في الفترة من (٣١٦ هـ : ٤٢٢هـ) وربما أبعد من هذه المدة الزمنية، ولعلَّ هذا ما أزعج ابن بسام الشنتريني (ت ٥٤٢هـ) في الذخيرة حينما رأى العقلية العربية في الأندلس تخطو على نفس خطا المشرق العربي بسبب ارتباطها الروحي بحاضرة العالم الإسلامي، حيث قال: "إلا أن أهل هذا الأفق، أبوا إلا متابعة أهل الشرق، يرجعون إلى أخبارهم المعتادة، رجوع إلى قتادة؛ حتى لو نعق بتلك الآفاق غراب، أو طن بأقصى الشام والعراق ذباب، لجثوا على هذا صنما، وتلوا ذلك كتاباً محكماً"(١).

ولعلَّ هذا الحضور القوي للموروث الشرقي أحد أسباب استمرار دولة الإسلام في الأندلس طيلة هذه القرون، فقد مثَّل لها هذا الحضور ضمانًا من الذوبان في حضارة البلاد المفتوحة.

ثانيًا: إنَّ ملاحظة تلك الموضوعات التي عالجها فن التوقيعات ينقلنا لحقيقة مهمة تتمثل في أنَّ فن التوقيعات في عصر الخلافة لم يعد مرتبطًا فقط بالحياة السياسية بل ولج إلى موضوعات أخرى اجتماعية، وهذا نوع من الارتقاء في هذا الفن، حيث إنَّ لديه من الإمكانات ما يؤهله لمعالجة تلك المسائل الاجتماعية، وهذه مسألة مهمة لصالح فن التوقيعات الذي لم يُصنَّف في الدرس الأدبي الحديث باعتباره أحد الأجناس الأدبية، وهذه مسألة ربما تحتاج إلى دراسة لبيان الأسباب التي أفضت إلى هذه النتيجة.

ثالثًا: إنَّ التوقيعات الأدبية التي تدخل تحت موضوع الإخوانيات تعكس حقيقة مهمة يمكن أن تمثل إشارة حول الحياة الاجتماعية في عصر الخلافة في الأندلس، فيبدو من خلال استقراء تلك التوقيعات أنَّ المجتمع كان يعاني حالة من الانسجام الطبقي مما جعل ميزان الأخوة في المجتمع يرتفع بشكل ملحوظ

(١) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: ١٢/١.

فكثرت تلك الرسائل التي تمثل أدب الإخوانيات في تلك الفترة، صحيح أنها كانت تدور بين عِلية القوم، لكن لا نعدم من بينها ما يقدم إشارة إلى تلك الحالة من الانسجام الطبقي.

رابعًا: تعدد الموضوعات التي دار حولها فن التوقيع في عصر الخلافة وتنوعها، وهو تعدد وتنوع يعكس ذلك الحضور لهذا الفن في الحياة الاجتماعية، ليس في عصر الخلافة فقط، وإنما في كل العصور السياسية في الأندلس كما بينتُ ذلك في الحديث عن نشأة فن التوقيعات.

ثانيًا: الدراسة الفنية:

تدور الدراسة الفنية لتوقيعات عصر الخلافة في الأندلس حول عدة نقاط أساسية، تتمثل فيما يلي:

أ: دراسة لغة التوقيعات الأدبية وأسلوبها.

ب: دراسة الصورة البيانية لتوقيعات عصر الخلافة.

ج: دراسة عناصر التجويد والصناعة.

أ-دراسة اللغة والأسلوب:

إنَّ المغزى الحقيقي من وراء دراسة لغة التوقيعات الأندلسية في عصر الخلافة يتمثل في بيان مكانة اللغة العربية وسلامتها في تلك الفترة التي تمتد من ٣١٦ هجرية حتى ٤٢٢ هجرية، وبيان هل تأثرت تلك اللغة بمؤثرات أجنبية نتيجة عملية الاحتكاك بلغات أجنبية أخرى في البلاد المفتوحة.

وتأتي دراسة لغة التوقيعات الأدبية في عصر الخلافة بالأندلس من خلال عدة ظواهر لغوية نبينها فيما يلي:

أولًا: ظاهرة الفصاحة اللغوية:

هذه ظاهرة من الظواهر اللغوية التي يمكن أن نحكم من خلالها على حفاظ نص من النصوص على فصاحته وسلامته اللغوية، ويمكن إدراكها من خلال تحليل مفردات النص اللغوية، أو على الأقل من خلال تكرار بعض الألفاظ الفصيحة على مستوى النص موطن الدراسة.

وبدراسة بعض ما وردنا من توقيعات أدبية تنتمي لعصر الخلافة بالأندلس نجد ظاهرة الفصاحة اللغوية هذه واضحة تمام الوضوح في نصوص تلك الفترة مما يعكس حفاظ اللغة العربية على مكانتها في تلك الفترة من دولة الإسلام في الأندلس.

ومن التوقيعات التي تجلَّت فيها هذه الظاهرة اللغوية توقيع عبد الرحمن الناصر على كتاب مُحَمَّد بن عبد الرَّحْمَن الْمَعْرُوف بالشيخ الْمُمْتَنع بحصن لقنت، فقد جاء في توقيعه: "وَلما رَأَيْنَاك قد تذرعت بِإِظْهَار اتقاء الله رَأينَا أَن نعرض عَلَيْك أَولا مَالا بُد لَك مِنْهُ أخراً..." (١).

فقد اشتمل هذا التوقيع على لفظة (تَذَرَّعَ)، وهي لفظة من الألفاظ الفصيحة التي لا تُستعمل إلا في سياق أدبي في أغلب الأحوال، وهي كافية للتدليل على أنَّ التوقيعات في عمومها قِطع أدبية غاية في الفصاحة والبلاغة، يقول ابن منظور في "لسان العرب": "والذَّرِيعة: الْوَسِيلَةُ. وَقَدْ تَذَرَّع فُلَانٌ بذَريعةٍ أَي توسَّل، وَالْجَمْعُ الذرائعُ"(٢).

ومعنى قول عبد الرحمن الناصر رحمه الله: (وَلما رَأَيْنَاك قد تذرعت بِإِظْهَار اتقاء الله) أي توسلت بإظهار اتقاء الله، وهذا استعمال فصيح يدل على أنَّ اللغة العربية حافظت على مكانتها طيلة تلك الفترة من وجود المسلمين في الأندلس.

ومن التوقيعات التي تتجلى فيها ظاهرة الفصاحة اللغوية كذلك ما ورد في توقيع الحكم المستنصر (ت٣٦٦ هجرية) على كتاب الوزير جعفر بن عثمان المصحفي، حيث كتب إلى الخليفة كتابًا يخلفُهُ في أهلِهِ وبيتِهِ بعد أن ألمَّت به نازلة لم يشك معها في اقترابِ أَجَلِهِ، فجاء في توقيع الحكم المستنصر: " فما

(١) انظر هذا التوقيع: المُغرب في حُلى المغرب، لابن سعيد المغربي: ١٨٤/١.

(٢) انظر: لسان العرب، مادة ذرع.

أَعْلَمُ رُزْيَة أَعْظَمُ من رُزْيَتِكَ لدينَا؛ لما بلونَاهُ من شُكْرِك ومجهُودِ حُرْمتك ومحمودِ صُحْبَتك"[١].

فمن الألفاظ الفصيحة الواردة في هذا التوقيع لفظة (رُزْية)، ومعناها: الْمُصِيبَةُ وَالْجَمْعُ (الرَّزَايَا) وَقَدْ (رَزَأَتْهُ رَزِيئَةٌ) أَيْ أَصَابَتْهُ مُصِيبَةٌ[٢].

إنَّ استعمال هذه اللفظة في توقيع الحكم المستنصر يدل على أنَّ العربية ظلت متمسكة بفصاحتها في كتابات الخلفاء والأمراء في تلك الفترة، وتلك الكتابات عنوان للكتابة الأدبية في أعلى درجاتها.

ثانيًا: ظاهرة الاقتباس

الاقتباس ظاهرة من الظواهر اللغوية المشهورة، واستعماله في فن التوقيعات الأدبية في الأندلس يربطنا بحقيقة مهمة هي أنَّ الاقتباس في فن التوقيعات الأندلسية كان محوره واحدًا في أغلب الأحوال وهو الموروث الشرقي، ذلك الذي ارتبط به الأندلسيون روحيًا رغم بعد المسافة بينهم، وقد تجلَّى هذا الاقتباس في الكتاب الذي أرسله صاحب دانية إلى المنصور بن أبي عامر الأصغر صاحب بلنسية، حيث ضمَّنه بيت الحطيئة: دَعِ المكَارمَ لا تَرْحَلْ لِبُغيتَها واقْعُدْ فإنَّكَ أنتَ الطَّاعمُ الكَاسِي

فأخرجت المنصور، وأقامته وأقعدته، فأحضر وزيره أبا عامر ابن التاكرني فكتب عنه:

شتمت مواليها عبيد نزار شيم العبيد شتيمة الحرار

فسلا المنصور عما كان فيه[٣].

ولعل هذا التوقيع يفسر لنا بعض أسباب استمرار الحضارة الإسلامية في الأندلس دون الذوبات في حضارات الأمم الأخرى.

---

(١) انظر هذا التوقيع في: المقْتَبس (تحقيق حجي): ص٦٩-٧٠.

(٢) انظر: مختار الصحاح: مادة رزأ، ص ١٢١.

(٣) انظر: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب: ١٣٢/٤.

ثالثًا: التَّأثر بأسلوب القرآن الكريم:

لقد مثَّل القرآن الكريم الركيزة الأساسية عند الأندلسيين في الحفاظ على لغتهم العربية دون تحريف أو وضعف، حيث أسهم القرآن الكريم إسهامًا مباشرًا في هذه القضية، وقد وصلنا من بين التوقيعات الأندلسية في عمومها توقيعات عبارة عن آية قرآنية فقط، ولكن ما وقفت عليه من توقيعات عصر الخلافة يبدو فيه التأثر بالقرآن الكريم واضحًا دون الاقتباس المباشر، ومن التوقيعات التي يتجلى فيها هذا التأثر بأسلوب القرآن الكريم توقيع عبد الرحمن الناصر (ت ٣٥٠ هـ) على كتاب مطرَّف بن منذر التُجيبي، وذلك عندما ثار مطرَّف في قلعة أيوب مستعينًا بالمشركين، فكان من توقيع عبد الرحمن الناصر على كتاب مطرَّف "...أولى له ثمَّ أولى، لقد ضلَّ سعيهُ وخَسرِ خسرانًا مُبينًا"(١).

حيث يبدو التأثر واضحًا بالقرآن الكريم في صياغة هذه الجمل العربية.

إنَّ الاعتماد على الإيحاء القرآني في انتقاء الألفاظ وصياغة الجمل هو مقياس من المقاييس المهمة للحضور القرآني في العقل الأندلسي العام طوال تلك الفترة من بقاء المسلمين بالأندلس، وهذا سرٌ معلوم من أسرار استمرار حضارة المسلمين في الأندلس طيلة هذه القرون.

رابعًا-استغلال إيحاء المثل العربي:

لقد جرت بعض الجمل مجرى المثل في بنيتها التركيبية، ومعلوم أنَّ الأمثال فنٌ عربي خالص، وقيمته في الكلام تتمثل في ذلك الاختصار المؤدي إلى الإقناع العقلي من أقرب طريق إن صح القول؛ لذلك كثر توظيف الكتاب للأمثال في نصوصهم، ولكن في بعض الأحيان يحدث أن لا يجد الكاتب من بين الأمثال ما يمكنه أن يعالج به فكرته، فيحاول أنْ يُجري الكلام مجرى المثل في الاختصار وتكثيف اللغة، وهذا ما حدث في توقيع عبد الرحمن

(١) انظر: المقتبس، لابن حيان (تحقيق الحجي): ٣٩٦/٥- التوقيعات الأندلسية: ص١٢٣.

الناصر (ت٣٥٠هـ) على كتاب الشيخ الممتنع، فقد قال في جزء من هذا التوقيع " وَلَيْسَ من أطَاع بالمقال كمن أطَاع بعد الفعال"(١)، فهذا القول جرى فيه عبد الرحمن الناصر مجرى المثل العربي من حيث عمليتي الاختصار والتكثيف كما سبق القول.

ب: دراسة الصورة البيانية لتوقيعات عصر الخلافة.

إنَّ دراسة الصورة البيانية في توقيعات عصر الخلافة مهم جدًا، ولعلَّ موطن أهميته يتمثل في أنَّ استغلال هذه الصور البيانية في سياق الكلام يعكس نوعًا من بلاغة الكلام، ووجود هذه الصور البيانية في توقيعات عصر الخلافة يدل على أنَّ اللغة العربية في تلك الفترة التي امتدت من ٣١٦ هجرية حتى ٤٢٢ هجرية قد حافظت على قوتها، ولم تصب بنوع من الوهن أو الضعف نتيجة الاحتكاك بالثقافات الأخرى كما هو المعلوم في أي لغة من اللغات، ولعل الفضل في ذلك يعود إلى سببين مهمين:

السبب الأول يتمثل في وجود القرآن الكريم الذي حافظ على سلامة هذه اللغة وارتقى بها ارتقاءً غير مسبوق.

والسبب الثاني يتمثل في أنَّ العقلية العربية بالأندلس وضعت نُصبَ أعينها دولة الإسلام في المشرق، فساروا على خُطاها، وحاولوا أن يجعلوها النموذج الأعلى الذي ينبغي أن يُحتذى، وليس أدل على ذلك مما كتبه ابن بسام في بدايات القرن السادس الهجري مؤكدًا أن العقل الأندلسي قد استجمع كل قواه في قضية التأثر ووجهها نحو المشرق الإسلامي.

غاية الأمر لقد انتشرة بعض الصور البيانية في توقيعات عصر الخلافة بالأندلس، ومن الصور البيانية ما يلي:

(١) انظر التوقيع كاملًا في : المُغرب في حُلى المغرب، لابن سعيد المغربي: ١/١٨٤.

الاستعارة:

كثر الاتكاء على إيحاء الاستعارة من بين الصور البيانية الأخرى في توقيعات عصر الخلافة، وذلك راجع لمكانتها في الكلام وقدرتها على فتح آفاقٍ جديدة في التصوير عن طريق إضفاء صفات وخصائص لموجودات ذهنية لا يتصور على الإطلاق قيامها بها، فتطلع شمس المجد، ويرتفع شعاع العلم، وتتفجر بحار الكرم...إلى غير ذلك من تلك الموجودات الذهنية التي حاولت الاستعارة تقريبها إلى النفوس.

ومن الاستعارات المستخدمة في توقيعات عصر الخلافة ما ورد في توقيع عبد الرحمن الناصر على كتاب الشيخ الممتنع، والذي جاء فيه ""وَلما رَأَيْنَاك قد تذرعت بِإِظْهَار اتقاء الله"[(١)]. ففي هذه العبارة تمَّ تجسيد تقوى الله كأنها شيء مادي يُتَذَرع به أولًا ثم يظهر مرئيًا للعين ثانيًا.

ومن ذلك أيضًا ما ورد في توقيع المستعين باللهِ (سُليمان بن الحكم) المتوفى (٤٠٧هـ) على كتاب رُفع إليه من بعض خدمه معتذرًا، حيث جاء فيه[(٢)]:

وَمن يكن القَريض لَهُ شَفِيعًا فَتركُ عتابه فرضٌ علينَا

فقوله (القريض له شفيعًا) من باب الاستعارة، وهو استعمال بليغ بسبب هذه الاستعارة التي جسدت القريض شفيعًا يقف أمام الخليفة يدافع عن صاحبه.

ومن ذلك أيضًا في توقيع الحكم المستنصر (ت ٣٦٦ هجرية) على كتاب الوزير جعفر بن عثمان المصحفي، حيث كتب إلى الخليفة كتابًا يخلفُهُ في أهلِهِ وبيتِهِ، فقد جاء في هذا التوقيع قول الحكم المستنصر "قَرأنَا كِتَابكَ بما ذَكرتَ من اشْتِدَادِ حالِكَ ووقُوعِ يأْسِكَ وارْتِفَاعِ رجائِك"[(٣)]. فوقوع اليأس وارتفاع الرجاء كلها من باب الاستعارات التي تُضفي على الكلام أنواعًا من الفصاحة والبلاغة.

---

(١) انظر التوقيع كاملًا في : المُغرب في حُلى المغرب، لابن سعيد المغربي: ١٨٤/١.

(٢) انظر التوقيع كاملًا في: الحلة السيراء: ١١/٢.

(٣) انظر التوقيع كاملًا: المقْتَبس (تحقيق حجي): ص٦٩-٧٠.

وكذلك من التوقيعات التي ورد فيها استغلال إيحاء الاستعارة في الكلام ما جاء في توقيع المستظهر بالله سليمان بن الحكم (ت ٤١٤هـ) على شعرٍ رُفع ليه يهنئه بالخلافة، حيث قال شعرًا[١]:

ونحنُ المُطْلعون بلا امْتراءٍ شُموسَ المجدِ من فَلِك الثَّوابِ

ففي قوله (المطلعون... شُموس المجدِ) استعارة استطاع الشاعر أو الموقِّع هنا تجسيد المعنوي (المجد) بصورة مادية (الشمس)، ولا شك أن هذه الاستعارة فتحت أمام الشاعر آفاقًا أخرى في الكلام وأكسبت كلامه أو شعره فصاحة وبلاغة.

الكناية:

لقد اعتمد الموقعون في عصر الخلافة كثيرًا على إيحاء الكناية في الكلام، مما أكسب كلامهم فصاحة وبلاغة، فمن ذلك ما جاء في توقيع عبد الرحمن الناصر على كتاب مطرَّف بن منذر التجيبي والذي قال فيه: "كان جوابُ مطرَّف بن منذر عند قراءته لهذا الكتاب بما بُذل له وسئِلَ من أمر الشرك فيه أن قال لمن حضره: أأقطع يميني بشمالي، فجعل المرتدُ الشِّركَ والخَلعان يمينه والإسلام والسلطان شماله، فبعدًا وسحقًا لمثله..." [٢].

فقوله: "أأقطع يميني بشمالي" فكنَّى مطرَّف عن الشرك بيمينه والإسلام والسلطان بشماله بحسب تفسير عبد الرحمن الناصر.

ومن ذلك توقيع المستعين بالله (سليمان بن الحَكم ت ٤٠٧هـ) على كتاب القاضي أبو القاسم بن مقدام

وَكَيف وَأَنت مُنْقَطع إِلَيْنَا وَقد علقت يَداك بِنَا حِبَالًا[٣]

(١) انظر التوقيع كاملًا: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: ٥٨/١.

(٢) انظر التوقيع كاملًا في: المقتبس، لابن حيان (تحقيق الحجي): ٣٩٦/٥- التوقيعات الأندلسية: ص١٢٣.

(٣) انظر التوقيع كاملًا: الحلة السيراء: ١١/٢.

فقوله (وقد علقت يَدَاكَ بنا حِبَالَا) وهو كناية قوة التمسك أو التعلق بالشيء المكين، أو بالأدق لقد نجح في تعلقه فقد تعلق بشيء قوي، حيث يبدو حاله في تعلقه به كمن تعلق بحبلٍ متين قوي.

ومن باب الكناية أيضًا في توقيعات عصر الخلافة ما ورد في توقيع المستعين بالله على أبيات الْوَزير يُوسُف بن أَحْمد الْبَاجِيّ، فقد جاء من ضمن أبياته التي شملها التوقيع قوله:

أَصبَحتَ من دُنياكَ فِي أَعلَى مَحلِّ الآملين(١)

فهذا البيت في عمومه كناية على كثرة العطاء الذي سيجعل الوزير الباجي في أعلى محل ما يأمله آمل من هذه الدنيا، وهو تعبير فصيح استطاع به المستعين بالله أن يكني عن كثرة كرمه وعطائه لهذا الوزير.

ج: دراسة عناصر التجويد والصناعة.

إن دراسة عناصر التجويد والصناعة، أو ما نسميه بالمحسنات البديعية، فيما وصلنا من توقيعات عصر الخلافة مهم من جوانب عدة يأتي على رأسها ارتباطه بالشرط الأساسي في صياغة عبارات التوقيع وهو أن يتحقق في تلك الصياغة البلاغة والاختصار، أي أن تنحو اللغة نحو التكثيف اللفظي، أو ما يمكن أن نسميه بالعمق اللفظي، وهو أن تكون اللفظة الواحدة منتقاة بعناية ومشحونة بدلالات كثيرة بحيث يمكنها أن تؤدي مع غيرها من الألفاظ المقصود منها في أقصر عبارة؛ لذلك لجأوا إلى الإتكاءِ على إيحاءات عدة منها إيحاءات المثل العربي ودوره في إضافة عنصر الحبكة اللفظية والعقلية – الإقناعية– إلى الكلام.

إنَّ المحسنات البديعية أو عناصر التجويد والصناعة ساعدت مُنشئِ التوقيع على ذلك، فكانت أهم أدواته التي اعتمد عليها –إضافة إلى الصور البيانية– في إنشاء نص يجمع بين البلاغة والاختصار في لغة مكثفة عالية، وقد مرَّ

(١) انظر التوقيع كاملا: الحلة السيراء: ١١/٢.

بنا من قبل ما أورده ابن خلدون من قيمة توقيعات جعفر بن يحيى البرمكي، حيث كانت "توقيعاته يتنافس البلغاء في تحصيلها للوقوف فيها على أساليب البلاغة وفنونها حتّى قيل إنّها كانت تباع كلُّ قصّة منها بدينار" [(١)].

ومن المحسنات البديعية التي تجلَّت في توقيعات عصر الخلافة بالأندلس ما يلي:

الجناس:

للجناسِ وقعٌ في الكلام حيث يجعله يجمع بين الفصاحة والبلاغة وقبول الكلام على نفس المتلقي، وقد تردد الجناس كثيرًا في توقيعات عصر الخلافة في الأندلس، وتنوع بين الجناس التام والناقص، من ذلك ما ورد في توقيع الحكم المستنصر (ت٣٦٦هـ) على كتاب الوزير جعفر بن عثمان المصحفي، حيث جاء فيه " فما أَعْلَمُ رُزْيَة أَعْظَمُ من رُزْيَتِكَ لدينَا"[(٢)]

فالجناس بين (رُزية – ورُزيتك) مما أوقع جرسًا موسيقيًا في الكلام، وهذا من شأنه أن يجعل الكلام مقبولًا على النفس، ويزيد من فصاحته وبلاغته.

الطباق:

لقد استخدم المنشئون لتوقيعات عصر الخلافة الطباق في توقيعاتهم المختلفة، واتكأوا على إيحاءات الطباق في الوصول بالتوقيعات إلى شرط البلاغة والاختصار، من ذلك ما ورد في توقيع الحكم المستنصر على كتاب الوزير جعفر بن عثمان المصحفي " فإنْ كان ما لابدَ من كونِهِ قريبًا أو بعيدًا"[(٣)]

فالتضاد بين (قريبًا وبعيدًا) من شأنه التأثير في ذهن السامع حيال النص المسموع.

---

(١) ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ص ٣٠٦.

(٢) انظر التوقيع كاملًا: المقْتَبس (تحقيق حجي): ص٦٩-٧٠.

(٣) السابق نفسه.

ومن ذلك أيضًا ما ورد في توقيع الحكم المستنصر أيضًا في قوله: " وإنَّا لم يُرد علينَا من قِبَلِكَ قطُّ ما أغمَّنا ولا ما أَنْكَرنا، ولا سوءُ ثناءٍ قط بشيء ظَاهرًا ولا باطِنًا". فالطباق بين (ظاهرًا وباطنًا) من شأنه أن يخدمَ الفكرة العَامة التي حاول النص إيصالها.

ومن الطباق ما ورد في توقيع عبد الرحمن الناصر على كتاب محمد بن عبد الرحمن المعروف بالشيخ الممتنع، حيث جاء فيه: ""وَلما رَأَيْنَاك قد تذرعت بِإِظْهَار اتقاء الله رَأينَا أَن نعرض عَلَيْك أَولا مَالا بُد لَك مِنْهُ آخراً"[1].

فالطباق بين (أولًا وآخرًا) ظاهر في هذا الجزء من التوقيع، وهو من شأنه أن يحدث انتباهة في عقل القارئ أو المتلقي للنص، خاصة وأن النص يدخل في باب التهديد الذي يدخل تحت مضامينه بعض توقيعات عصر الخلافة.

ومن ذلك أيضًا ما ورد في توقيع الحكم المستنصر على كتاب الوزير جعفر المصحفي " ووقُوعِ يأْسِكَ وارْتِفَاعِ رجائِك" فالطباق بين اليأس والرجاء واضح في هذا الجزء من التوقيع.

المقابلة:

المقابلة تنشأ بين الجمل، وهي تخلق في الكلام نوعًا من الانسجام بين فقراته المختلفة عن طريق الصعود والهبوط المعنوي المرتبط بالإيجاب والسلب الذي تثيره المقابلة، وقد تكررت المقابلة باعتبارها أحد المحسنات البديعية في توقيعات عصر الخلافة، ولعل الذين قاموا بهذه التوقيعات لجأوا إلى المقابلة رغبة في استغلال إيحاءاتها عن طريق الإيجاب والسلب المعتمد على الجملة لا مجرد اللفظة الواحدة.

ومن التوقيعات التي وردت فيها ما جاء في توقيع أحمد بنِ سعيدِ بن حزم (ت ٤٠٠هـ) على كتابِ القَاسم أحمد بن أبي بكر الزبيدي، حيث كتب إليه كتابًا، وكتب في آخره هذا البيت:

---

(١) انظر: المُغرب في حُلى المغرب، لابن سعيد المغربي: ١/١٨٤.

ومِنْ نَكَدِ الدُّنيا عَلَى الحُرِّ أنْ يَرَى عَدواً له مَا من صَداقتهِ بُدُّ

فحَوَّلَ أحمد بنِ سَعيدِ بن حَزْمٍ الكتابَ ووقَّعَ على ظَهْرِهِ ولم يَزِد:

ومِنْ نَكَدِ الدُّنيا عَلَى الحُرِّ أنْ يَرَى صَديقًا له مَا مِن عَداوتِهِ بُدُّ

فالمقابلة بين جملتي (أن يرى عدوًا) و (أن يرى صديقًا) من شأنها أن تخلق في الذهن انتباها للقضية التي أُنشِئ التوقيع من أجلها.

ومن ذلك أيضًا ما ورد في توقيع عبد الرحمن الناصر على كتاب معد بن إسماعيل الشيعي، أمير إفريقيه، وقد أفْحَشَ فيهِ السب، وكانت بينهما منافرة، فوقَّعَ النَّاصِرُ على كتَابِهِ: "يا هَذَا عَرَفْتَنَا فَسَبَبْتَنَا، وجَهِلْنَاكَ نحنُ فأمْسَكنَا عنكَ"(١).

فالمقابلة بين (عرفتنا) و(جهلناك) من شأنها أن تؤدي الغرض الذي قصده عبد الرحمن الناصر من توقيعه هذا الذي جاء غاية في البلاغة.

السجع:

للسجع دور في علو منزلة الكلام وبيان مقدار بلاغته وفصاحته، فالجرس الموسيقي الناتج عن السجع من شأنه أن يجعل الألفاظ عبارة عن دفقات متتالية يسهل معها التناول والتأثير في النفس، وقد اتكأت توقيعات عصر الخلافة على السجع باعتباره أحد المحسنات البديعية في مواطن عديدة منها، فمن ذلك ما ورد في توقيع الحكم المستنصر على كتاب الوزير جعفر المصحفي، فقد جاء فيه قوله: "قَرأنَا كِتَابكَ بما ذَكرتَ من اشْتِدَادِ حالِكَ ووقُوعِ يأْسِكَ وارْتِفَاعِ رجائِكَ".

فالسجعُ بين (حالك- يأسك- رجائك) أحدث جرسًا في الكلام، وهو جرسٌ موسيقي مطلوب في مثل هذه التوقيعات، خاصة وأنَّ المنشئ لها هو الحكم المستنصر ببلاغته وفصاحته.

(١) الزهراتِ المنثورة: ٦٩/٢- التوقيعات الأندلسية: ص١٢٣.

ومن ذلك ما ورد في نفس التوقيع أيضًا من قول الحكم المستنصر: " فعلى أفضلِ الذي رَغبتَهُ وأردتَهُ وأمَّلته ورَجَوتَهُ"(١).

فقد أحدث حرف الهاء جرسًا موسيقيًا متمثلًا في ذلك السجع الذي أضفى على الكلام نوعًا من البلاغة والخفة جعلته مقبولًا لدى القارئ أو المتلقي للنص.

هذه بعض المحسنات البديعية التي تكررت في توقيعات عصر الخلافة في الأندلس، وقيمتها تتمثل في أنَّ وجودها يعكس درجة البلاغة التي تتحلى بها توقيعات عصر الخلافة، تلك التي تعدُّ شاهدًا من الشواهد الكبرى على أنَّ اللغة العربية ظلت محافظة على سلامتها وفصاحتها وبلاغتها طيلة تلك الفترة من وجود الإسلام في الأندلس.

(١) انظر التوقيع كاملًا في: المقْتَبس (تحقيق حجي): ص٦٩-٧٠.

نتائج الدراسة:

هذه بعض النتائج التي يمكن استخلاصها من هذه الدراسة التي تدور حول فن التوقيعات في عصر الخلافة بالأندلس:

- إنَّ السبب في عدم اشتهار فنِّ التوقيعات مثل بقية فنون الأدب العربي الأخرى يرجعُ إلى أنَّ مصنِّفي الأدب لم يعتبروه جنسًا أدبيًا قائمًا بذاته مثله مثل الرسائل والخطابة والوصايا.
- لقد انتشر فن التوقيعات في ربوع الحياة الأدبية في المشرق انتشارًا قويًا، ومن الدلائل المهمة على ذلك وروده في مصادر مشرقية كثيرة، مما يدل على وجوده القوي في الحياة الأدبية.
- لقد مثَّل فن التوقيعات حلقة مهمة من حلقات دائرة النثر الأدبي في الأندلس، وارتبط ارتباطًا قويًا بقضايا بلاغية مهمة جدًا يأتي على رأسها الإيجاز اللفظي والاستعارة واستخدام تقنيات التعبير من خلال المحسنات البديعية المختلفة.
- إنَّ قِصَر عبارات فن التوقيع تعدُّ ميزة من ميزاته المهمة، حيث تجعله أقل عرضة للتحريف والتبديل بسبب سهولة حفظه في الذاكرة، فمثله مثل فن الأمثال في الحفاظ على بنيته اللفظية كما أداها صاحبها.
- إنَّ التعريف اللغوي لمصطلح "توقيع" يحدد أبعاد فن التوقيعات وحدوده، كما أنَّ المعني الاصطلاحي يدور حول اعتبار فنِّ التوقيع من خُطط الكتابة كما قال ابن خلدون.
- إنَّ المجال اللغوي للفظة (توقيع) قد تم اشتقاقه من عدة استخدامات استخدمها العرب، ولكن هذه المعاني اللغوية للفظة "توقيع" ما زالت مستخدمة حتى يومنا هذا، فما زلنا نستخدم لفظة الوقائع في التعبير عن الحروب، ونعبر عن مساقط الغيث بقولنا "مواقع الغيث"...إلى غير ذلك من تلك الاستخدامات التي تعكس حياة اللغة العربية،

فألفاظها التي تم توليدها أو نشأتها لتعبر عن أشياء في ذهن العربي الأول ما زالت مستخدمة حتى يومنا هذا،

- إنَّ التعريف الذي قدَّمه القلقشندي لمصطلح (التوقيع) يعدُّ من أدق التعريفات لهذا الفن لأنه تضمَّن المهام التي كان يقوم بها فن التوقيع في الحياة الأندلسية، وقد كان القلقشندي مدركًا لهذه المهام لعمله في ديوان الإنشاء.
- إنَّ الشخص القائم بالتوقيع يحتاجُ إلى شيء من البلاغة في صياغة توقيعه كما أشار إلى ذلك ابن خلدون، ومن هذا الموطن تتجلى قيمة دراسة التوقيعات باعتبارها أحد الفنون الأدبية.
- إن ثمة دراسات تناولت فن التوقيعات الأدبية سواء في العصر الأندلسي أو في عمومها في المشرق والمغرب، واختلفت وجهات هذه الدراسات، فبعضها درس فن التوقيعات من حيث الجانب البلاغي، والبعض الآخر درسها من حيث الوجهة المصدرية لهذا الفن، أي دراسة المصادر المختلفة، والبعض الثالث درسها من حيث البنية اللغوية...إلى غير ذلك من تلك وجهات الدراسة المختلفة، وهو تنوعٌ يعكس قيمة هذا الفن ومكانته.
- إنَّ فن التوقيعات ارتبط بنشأة الكتابة؛ لذلك لا نجد أي أثرٍ لفن التوقيعات في العصر الجاهلي، وارتبط في الأساس بنشأة الكتابة الديوانية، لذلك فإنَّ وجود هذا الفن يعكس بعضًا من ملامح الاستقرار في الدولة الإسلامية في تلك الفترة التي نشأ فيها هذا التوقيع.
- إنَّ أمراء عصر الإمارة كانوا على درجة من البلاغة والفصاحة ما انعكس على توقيعاتهم، لدرجة أن بعض هذه التوقيعات قد أخذ مساحة لا بأس بها تصلح أن تدور عليها دراسات أدبية ولغوية.

- في عصر الخلافة في الأندلس، والذي امتدَّ في الفترة من (٣١٦هـ: ٤٢٢هـ) لم تعد تقتصر التوقيعات على الأمور السياسية وإنما امتدت إلى الحياة الاجتماعية في الأندلس.
- امتد وجود فن التوقيعات في كل العصور السياسية في الأندلس، بداية من عصر الإمارة والذي امتد من ١٣٨ هـ حتى ٣١٦ إلى عصر بني الأحمر آخر العصور السياسية في الأندلس والذي شغل الفترة من (٦٣٥هـ حتى ٨٩٧هـ).
- إنَّ دراسة مصادر فن التوقيعات في الحياة الأندلسية تثير مفارقة مهمة تتمثل في أن هذا الفن قد حظي باهتمام الدرس المصدري على مدى قرون عدة أرَّخت لها المصادر المختلفة، وتضمنت من بين بنيتها المعرفية فن التوقيعات، وهو اهتمام لا ينسجم على الاطلاق مع عدم اكتراث الدرس المصدري الحديث بفن التوقيعات، حيث لم يعتبره فنًا قائمًا بذاته، الأمر الذي يجعلنا أمام تحدي مهم للغاية يتمثل في محاولات إثبات أن فن التوقيعات يملك رصيدًا قويًا يؤهله أن تدور عليه دراسات الآلة في اللغة العربية مثل الدراسات البلاغية والنقدية، وحتى الدراسات اللغوية التي تلتقط بين حين وآخر بعض موادها المعرفية من هذه التوقيعات.
- توزعت توقيعات عصر الخلافة بين موضوعات عدة؛ فمنها ما دار حول التهديد والوعيد، ومنها ما دار حول الحكمة في القول، ومنها ما دار حول المواساة، ومنها ما دار حول السخرية والظرف...إلى غير ذلك من تلك الموضوعات.
- إن وجود العناصر البيانية وعناصر التجويد والصياغة، أو ما يُسمى بالمحسنات البديعية، في توقيعات عصر الخلافة يدل دلالة أكيدة على مقدار البلاغة التي تتمتع بها هذه التوقيعات من ناحية، ومن ناحية أخرى سلامة اللغة العربية وقوتها وفصاحتها.

المصادر والمراجع:

- الإحاطة في أخبار غرناطة، للسان الدين بن الخطيب، تحقيق محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٩٣هـ.
- أساس البلاغة، للزمخشري، تحقيق محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ.
- إعتاب الكُتاب، لابن الأبار القضاعي، تحقيق د. صالح الأشتر، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، الطبعة الأولى، ١٣٨٠ هـ.
- أعمال الأعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، للسان الدين بن الخطيب، تحقيق ليفي بروفنسال، دار المكشوف، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية.
- الاقتضاب في شرح أدب الكاتب، لابن السيد البطليوسي (ت ٥٢١هـ)، تحقيق مصطفى السقا وحامد عبد المجيد، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٩٦م.
- بدائع السلك في طبائع الملك، لابن الأزرق، تحقيق على سامي النشار، وزارة الإعلام، العراق، ط١.
- البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، لابن عذاري المراكشي، تحقيق ومراجعة: ج. س. كولان، إ. ليفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت – لبنان، الطبعة: الثالثة، ١٩٨٣.
- تاريخ قضاة الأندلس، للنباهي، تحقيق بروفنسال، تحقيق بروفنسال، دار الكاتب المصري.

- تهذيب اللغة، لأبي منصور الأزهري، تحقيق محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠٠١م، باب العين والقاف.
- التوقيعات الأندلسية، صلاح جرار، محمد محمود الدروبي، منشورات جامعة آل البيت، الأردن، ١٤٢٠هـ.
- التوقيعات الأندلسية، نشأتها وتطورها في العصر الأندلسي، رفيع أحمد، مقال على شبكة الانترنت تحت هذا الرابط: https://www.aqlamalhind.com/?p=710
- التوقيعات الشعرية في الأندلس بين الأسس الموضوعية وقواعد الفن، د. محمود صبحي سيد أحمد شاهين، حولية كلية اللغة العربية بنين بجرجا، جامعة الأزهر، العدد الرابع والعشرون، الجزء الثاني عشر، ١٤٤٢هـ، من ص ١١٥٣٧: ١١٥٩٨.
- التوقيعات من المنظور البلاغي، حسن بنيخلف، مجلة عالم الفكر، الكويت، العدد ١، المجلد ٤٤، يوليو– سبتمبر ٢٠١٥.
- جذوة المقتبس، لمحمد بن فتوح الحميدي، الدار المصرية للتأليف والنشر، القاهرة، ١٩٦٦م.
- حدائق الأزاهر في مستحسن الأجوبَةِ والمضحكات والحكم والأمثال والحكايات والنوادر، لمحمد بن عاصم الغرناطي، تحقيق د. عبد اللطيف عبد الحليم، دار الكتب والوثائق القومية، ١٤٣٥هـ.

- الحلة السيراء، لابن الأبار القضاعي البلنسي (ت ٦٥٨ هـ)، تحقيق د. حسين مؤنس، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٨٥ م.
- ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، لابن خلدون، تحقيق خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٨هـ.
- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، لابن بسام الشنتريني (ت ٥٤٢ هـ)، تحقيق د. إحسان عباس، الدار العربية للكتاب، ليبيا- تونس، ط١، ١٩٨١.
- زهر الأكم في الأمثال والحكم، نور الدين اليوسي، تحقيق د. محمد حجي- د. محمد الأخضر، الشركة الجديدة – دار الثقافة، الدار البيضاء – المغرب- الطبعة: الأولى، ١٤٠١ هـ – ١٩٨١ م.
- الزهرات المنثورة في نكت الأخبار المأثورة، لابن سماك العاملي، تحقيق د. محمود مكي، مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد، المجلد الحادي والعشرون، ١٩٨١-١٩٨٢.
- الشهب اللامعة في السياسة النافعة، لأبي القاسم بن رضوان المالقي (ت ٧٨٣ هـ)، تحقيق د. علي سامي النشار، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى، ١٤٠٤ هـ.
- ضحى الإسلام، لأحمد أمين، مطبعة الاعتماد، القاهرة، الطبعة الأولى،١٣٥١هـ.

- فن التوقيعات الأدبية في العصر الإسلامي والأموي والعباسي، د. حمد بن ناصر الدخيل، ص ١٠. وانظر في توثيق هذا التوقيع: خاص الخاص، للثعالبي، تحقيق حسن الأمين، دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان.
- القاموس المحيط، للفيروزآبادي، تحقيق مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط٨.
- كتاب العين، للخليل بن أحمد، تحقيق مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، باب العين والقاف.
- المحكم والمحيط الأعظم، لابن سيده، تحقيق عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- مخطوط: رونق التحبير في حكم السياسة والتدبير، لابن سماك العاملي، ص ٧٩. (نقلًا عن وصايا وتوقيعات أندلسية من خلال مخطوط "رونق التحبير في حكم السياسة والتدبير" لابن سماك العاملي، تقديم: الدكتورة نجاة المريني، كلية الآداب– الرباط).
- المُغرب في حُلى المغرب، لابن سعيد الأندلسي، تحقيق د. شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٩٥٥.
- مقاييس اللغة، لابن فارس، تحقيق عبد السلام هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هجرية.
- المقتبس، لابن حيان، تحقيق عبد الرحمن حجي، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ١٩٦٥م.

- المقتبس، لابن حيان، تحقيق محمود مكي، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، القاهرة، ١٤١٥هـ.
- المنتخب من غريب كلام العرب، لأبي الحسن الهُنائي (الملقب بكراع النمل)، تحقيق د. محمد أحمد العمري، جامعة أم القرى، معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ.
- موجز تاريخ الأندلس من الفتح حتى سقوط غرناطة، د. طه عبد المقصود، دار الثقافة العربية، القاهرة، ١٤٢٠ هـ.
- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، لشهاب الدين المقري التلمساني، تحقيق د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٩٧م.